بين الأدغال

جاذبية صدقي

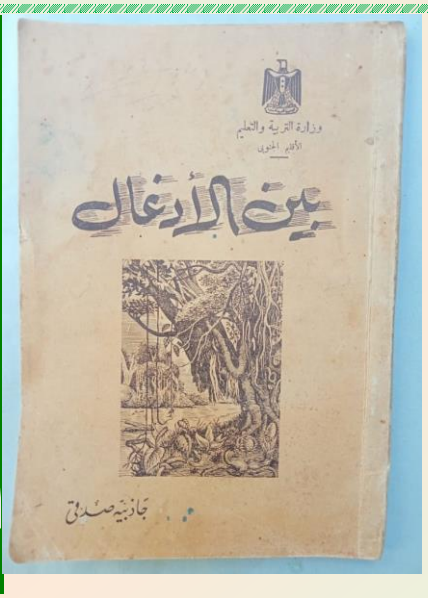

من عجائب الخلق

استلقى مرجان على ظهره في ظل شجرة وارفة ؛ و قد لوى ذراعيه تحت رأسه ؛ و راح يتأمل الجمال المحيط به في تلك الغابة الكثيفة من غابات منطقة بحر الغزال في السودان .

و تعاونت الطبيعة على تسليته فلاءمت بين أصوات شتى لتخرج له لحناً موسيقياً حبيباً إلى نفسه ؛ و إن اختلفت نغماته و تفاوتت طبقاته : من حفيف الأغصان و هزيز الأنسام ؛ و خرير الجداول ؛ إلى زئير الأسود و عواء الذئاب و نقيق الضفادع .

و هبت نسمة طيبة داعبت وجهه و ملأت خياشيمه بعطر الأزهار ؛ فابتسم مرجان و تنهد في رضاً ؛ و أغمض عينيه و قد داعبه النعاس ؛ و ارتاحت أذنه المرهفة إلى الصدى الأليف المتجاوب في أرجاء الغابة ..

و صرخ قرد صغير ضربه آخر كبير و اغتصب طعامه فراح يقفز و يلطم خديه و فخذيه شاكياً باكياً ؛ ففتح مرجان عيناً يتأمل المتشاحنين ؛ مصطبراً عليهما ؛ حتى إذا زادت المشاحنة و عنفت تناول حجراً ألقاه ناحيتهما علهما يهدآن ..

فما كان من القرد الكبير إلا أن جذب ثمرة من شجرة جوز الهند ألقاها منتقماً على مرجان ؛ فأسرع الفتى يتنحى عن مكانه خشية أن تصيبه ؛ فسقطت جوزة الهند إلى جواره كبيرة ناضجة يجري لها الريق ..

فأخذها مرجان مرحاً مستبشراً و احتضنها ؛ و في نيته أن يقتسمها هو و صديقه ابن عمه حبهان عندما يلتقيان ..

و تناوم مرجان مرة أخرى ؛ لكنه راح – و قد أسدل نصف جفنيه – يرقب القرود و هي تتعلق بذيولها الطويلة القوية بأغصان الأشجار ؛ و تترجح كما راح يصغي لثرثرتها التي لا تهدأ ؛ فوجد أنها لا تأكل الفاكهة و أوراق الشجر الغضة و حسب ؛ بل تنبش الأرض لتستخرج منها ديداناً سمينة متلوية فتأكلها ؛ كما تبحث عن خنفس الغاب السوداء الكبيرة الحجم ؛ و الجراد الذي يلوذ بجذور الأشجار المتشابكة ؛ و لاحظ مرجان أيضاً أن بعض القردة لا تتحرك من مكانها و لا تشترك في البحث عن طعام ؛ لكنها برغم ذلك لا تكف عن المضغ ..

تحير مرجان و تعجب ؛ لكنه لم يلبث أن ضحك عالياً و قد تذكر ما قاله له أبوه من أن الله سبحانه خلق القرد و جعل له في كل من شدقيه كيساً يختزن فيه الطعام الذي يعثر عليه في تجواله و لا يجد لديه رغبة في تناوله من فوره ؛ حتى إذا جاع حرك شدقيه فتضغط عضلات الفكين على الكيسين و تفرغ ما فيهما من طعام في فمه فيعمل القرد أسنانه في المضغ هانئاً متلذذاً ..

ولاحظ مرجان أيضاً أن للقردة مجتمعاً و عادات و تقاليد لا تحيد عنها ؛ فالقردة كمعظم الحيوانات تعيش في جماعات يرأسها ملك ؛ و هذا الملك لا يرث عرشه بل يكتسبه بقوته و نضاله .. فعندما يموت الملك أو يبلغ من العمر حد الكبر يهب قرد آخر شاب قوي و يمسك بزمام الأمور بين يديه ؛ و قد يهب قرد آخر قوي شاب مثله ينازعه الملك ؛ فيتقاتل القردان الشابان و من كانت له الغلبة صار ملكاً يدين له الجميع بالطاعة ؛ أما المهزوم فقد ينضم إلى الرعية و قد يطرده الملك المنصور فيمضي شريداً وحده في الغابة أو يلجأ إلى جماعة أخرى من القردة يعيش بينها .. ..

و هكذا أمضى مرجان ساعة هانئة مستلقياً بين الزهور يتأمل الطبيعة حوله في انتظار صديقه و ابن عمه الذي لم يره منذ الصباح

و لم يلبث حبهان ابن عم مرجان أن برز من بين الحشائش المتكثفة التي تنمو بين الأشجار و كان يحتضن قصعة ينوء بحملها ؛ فما لمحه مرجان حتى قفز يستقبل صائحاً :

– أهلاً بأخي حبهان .. أين كنت طوال اليوم ؟ و ما هذا الذي في القصعة ؟ ..

فابتسم حبهان في غموض ؛ و لم يجبه من فوره ؛ ثم قال بعد لحظة في تؤدة :

– احزر أنت ماذا أحمل ! .. إن صدق حزرك أعطيتك نصف ما في القصعة ..

فاتسعت عينا مرجان و هو يحملق في القصعة التي يغطيها قليل من أوراق الشجر ؛ و راح يحاول جاهداً أن يكشف عما تحتويه ؛ أو على الأقل يلتمس شيئاً ينم عليه ؛ و فجأة لمح خيطاً رفيعاً من سائل لزج ذهبي اللون ؛ على جانب القصعة ؛ فتواثب فرحان يصفق بيديه و يصيح :

– هذا شهد .. شهد .. تالله إن قصعتك لمملؤة بالشهد ..

فأجابه حبهان :

– تالله إنك لمن الجن مهارة و ذكاء .. ..

و ضحكا ؛ و جلسا جنباً إلى جنب يفترشان العشب الأخضر الجميل الذي يشبه بساطاً من سندس الجنة .. ..

و جعلا يغرفان من الشهد و يأكلان بتلذذ و شهية حتى شبعا ؛ فسأل مرجان ابن عمه :

قل لي : كيف حصلت على هذا الشهد الشهي ؟ .. و عهدي بك ترهب لذعات النحل و تتجنب التعرض لها ؟ ..

فأجاب حبهان :

– لقد علمني أبي الطريقة الصحيحة التي اجني بها الشهد .. ..

فسأله مرجان :

– و ما تلك الطريقة ؟ أخبرني لعلي أتبعها يوماً .. ..

فتنحنح حبهان ؛ و قال بوقار الراسخين في العلم :

– تأخذ معك كأساً (فأساً) و إناءً و كبريتاً ؛ فتشعل أعواداً من القش تحت الخلية لتطرد النحل ؛ ثم توسع فم الخلية بالفأس ؛ و تجتني على هواك شهداً حلالاً فيه شفاء للناس .. ..

فشعر مرجان بمزيد احترام نحو حبهان ..

و لكنه شعر في الوقت عينه بفضول متزايد للوقوف على كل التفصيلات ؛ فألح في السؤال قائلاً :

– و لكن من الذي دلك على الخلية التي أخذت منها هذا الشهد ؟ أنا أعرف أن نحل الغابة يتفنن في تخبئة خلاياه بين الأغصان العالية المتشابكة .. ..

فأجاب حبهان :

– لقد دلني على الخلية "الفتان" ..

– الفتان ! .. و من يكون ؟

فقهقه حبهان ضاحكاً ثم قال :

– ألا تعرفه ؟ .. ألم تقابله مرة ؟ .. إنه عصفور رمادي اللون ؛ كأنه أبو فصادة ؛ إلا أن ذيله أطول منه قليلاً ؛ و قد ميزه الله سبحانه بصفات تثير الدهشة و العجب حقاً ؛ فهو كشاف بارع ؛ مغرم بالاستطلاع ؛ نشيط ؛ لا تفتر له همة و لا يعرف الكلال ؛ و هو يأنس بالإنسان إذا ما لقيه في الغابة و يفرح بلقائه كأن بينهما صداقة قديمة ؛ فيقطع عليه الطريق طائراً حوله محوماً ؛ يقبل و يدبر ؛ صاعداً هابطاً ؛ يرفرف بجناحيه و هو يصدح بالغناء ؛ و له شقشقة لطيفة ترتاح لها النفس ؛ فإذا حدث أن قابلته أثناء تجوالك يا مرجان فلا تغرنك بشاشته و ملاطفته ؛ و لا تتبعه لأول إشارة منه ؛ فإنه سيأخذك إلى أحد مكانين :

☚ إما إلى خلية نحل ؛ فإنه مغرم بأكل شهده ؛ و ☚ إما إلى حيث تلتقي بحيوان مفترس ؛ فتدور بينكما معركة حامية على حين يتفرج هو فرحان مغتبطاً ؛ و يشرف على المعركة التي كان هو السبب في قيامها من فوق ربوة مرتفعة بعيدة عن الخطر ؛ حتى إذا قدرت لك الغلبة نزل الفتان مسرعاً ؛ و شرب من دم الحيوان القتيل ؛ و هو يضرب بجناحيه بشدة نشوان طرباً ..

فحك مرجان رأسه متعجباً مما يسمع ؛ ثم برقت عيناه الواسعتان فجأة كأنما تذكر أمراً ذا بال :

– و لكن كيف نميز بين الأمرين ؟ .. كيف تستطيع أن تعرف هل يقودك الفتان إلى طعام شهي أو إلى خطر مخوف قد يسلمك إلى موت عاجل ؟ .. ..

فابتسم حبهان و ربت كتف مرجان ملاطفاً :

– خل عنك يا ابن عمي ؛ فهذا أمر سهل ؛ إذا أتاك الفتان فتأمل حاله و تفطن ؛ فإذا رأيته قد هبط على غصن و وقف يحك رأسه بجسمه متألماً ؛ و يضرب بجناحيه في ضعف و ذلة ؛ فاعلم أنه عائد فوراً من خلية شهد ؛ بعد أن حاول وحده سرقة بعضه ؛ فآذاه النحل و طرده شر طردة ؛ حينئذ اتبعه أينما قادك ؛ أما إذا وجدته قلقاً لا يستقر على حال يصيح بصوت عال و

يشقشق مضطرباً و يطير إلى مسافات قريبة ؛ ثم يعود إليك محموماً حولك كأنما ينقل إليك خبراً هاماً ؛ فاعلم أنه يدبر معركة بينك و بين أحد وحوش الغابة ؛ و أنت و شأنك بعد ذلك : إما تبعته ؛ و إما صرفت عنه اهتمامك ..

ففكر مرجان لحظة فيما قصه عليه ابن عمه ؛ ثم عاد يسأله :

– و لكن ؛ لماذا سماه الناس الفتان ؟

فأخذ حبهان بيد مرجان يحثه على المضي معه ليعودا إلى كوخيهما مع الغروب ؛ و قال له أثناء الطريق :

– لقد سماه الناس الفتان لأن له صفة يستأهل بها هذا الاسم ؛ فهو لا يترك أحداً يخبئ شيئاً في أرض الغابة حتى يفشي سره ؛ و لابد أن يعود بشخص غريب ليستولي على الشئ المدفون ؛ لذلك يتجنب الناس تخبئة ما يريدون نهاراً حتى لا يراهم الفتان ؛ بل يلوذون بأستار الليل بعد أن ينام الفتان و يأمنوا شره .. ..

و ضحكا طويلاً و هما سائران يتبادلان الأحاديث ؛ ثم قال مرجان :

– أنا أيضاً أعرف عصفوراً اسمه صديق التمساح ؛ خلقه الله سبحانه ليكون فرشان أسنان حية للتمساح ..

فضج حبهان بالضحك ؛ ثم سأل ابن عمه :

– كيف ذلك ؟ كيف يكون عصفور فرشاة أسنان كما تقول ؟

فأجابه مرجان :

– صدقني ؛ لقد رأيته بعيني رأسي هاتين مراراً و تكراراً و هو يقوم بالمهمة التي خلقه الله من أجلها ..

فوضع حبهان يديه على خاصرتيه و تساءل ساخراً :

– و ما تلك المهمة يا صديقي الواسع الخيال ؟

فقال مرجان :

– تنظيف أسنان التمساح ..

فضرب حبهان كتف مرجان مدعباً و قال :

– لابد أنك تَحْذِرُ معي بحكاية العصفور هذه .. ..

فسحب مرجان ابن عمه حبهان من ذراعه ؛ و سار به ناحية النهر و هو يقول له :

– تعالَ .. تعالَ معي .. سأريك ما رأيته أنا و أبي بالأمس القريب حتى تصدقني ؛ إن في الطبيعة أسراراً و حقائق أغرب من الخيال ؛ لا يكاد يصدقها العقل .. ..

و مشى الغلامان حتى وصلا إلى شاطئ النهر ؛ فشاهدا تمساحاً عجوزاً نائماً ؛ و قد استلقى كقطعة من خشب سوداء ؛ و لكن الغريب في الأمر أن فم التمساح كان فاغراً كأنما تثاءب ثم نسي أن يطبق فمه بعد ذلك ..

فوضع مرجان أصبعه على شفتيه يحض حبهان على السكون و التزام الصمت ؛ ثم خطوا في احتراس حتى اقتربا من التسماح النائم لتتيسر لهما الفرجة ؛ و مرت لحظة صمت عميق ؛ و فجأة هبط عصفور بني اللون من إحدى الشجرات ؛ و راح يحجل مقترباً من التمساح المتناوم ؛ أو لعله كان نائماً حقاً ؛ و لكن الله سبحانه و هب ذلك العصفور خصلة الحذر ؛ لهذا راح يقترب شيئاً فشيئاً من التمساح في حيطة و انتباه ؛ ثم قفز داخل فمه الفاغر ؛ و بسط جناحيه و أخذ ينبش بمنقاره بين أسنان التمساح المفزعة ؛ و يلتقط بقايا الطعام التي بينها ؛ و يأكلها هانئاً سعيداً ..

فذهل حبهان و قال لابن عمه :

– سامحني يا مرجان لأنني لم أصدقك أول وهلة ؛ و لكنني لم أر من قبل مشهداً كهذا ؛ قل لي يا مرجان :

فقاطعه مرجان ضاحكاً :

– ماذا أقول لك بعد يا حبهان ؟

فسأله حبهان :

– لماذا يبسط العصفور جناحيه هكذا ؟ و يدف بهما داخل فم التمساح ؟ كأنما يهم أن يطير ؟

فأجابه مرجان :

– إنه يبسط جناحيه ليكون على أهبة الاستعداد للفرار في أية لحظة ؛ فإن التمساح غدار بطبعه ؛ فبعد أن ينظف له العصفور أسنانه و يخلصه من بقايا الطعام التي تضايقه ؛ قد يطبق التمساح فمه عليه و يلتهمه ؛ لذلك خلق الله الرحيم للعصفور شوكتين في أعلى جناحيه ؛ حتى إذا أطبق التمساح الغادر فكيه عليه فجأةً وخزه العصفور بالشوكتين فيتألم و يفتح فمه ؛ فيهرب العصفور إلى مأمنه و ينجو بعمره .. ..

فهز حبهان رأسه متعجباً مما يسمع ؛ و أمسك بيد ابن عمه مرجان و وليا وجهيهما شطر القرية التي تبين أكواخها على بعد ؛ رابضة بين أشجار الغابة .. ..

صيادون أربعة21

كان مرجان و ابن عمه حبهان غلامين سودانيين ولدا في يوم واحد ؛ و شبا في كوخين متجاورين ؛ و قد بلغا العاشرة من عمرهما لكنهما – بفضل معيشتهما في الهواء الطلق و الشمس الذهبية – كانا فارعي الطول ؛ صحيحي البدن ؛ و كانا يمارسان ألواناً عدة مختلفة من الرياضة : كالسباحة ؛ و الركض ؛ و المصارعة ؛ و تسلق الأشجار .. أما وقت الفراغ فلم يكونا يضيعانه سدى ؛ بل نحت كل منهما لنفسه قوساً و رمحاً من أغصان الأشجار ؛ كما صنعا نبلتين ؛ و اختارا مجموعة كبيرة من الحصى الدقيق المسنون جمعاها في كيس مشترك بينهما ؛ ثم راحا يتمرنان على الصيد ساعات طويلة ؛ لكنهما لا يتوغلان كثيراً في قلب الغابة ؛ فلم يكن مسموحاً لهما بعد بالتجوال على هواهما .. و كانا ينتظران اليوم الذي يصحبهما فيه أبواهما إلى رحلة صيد حقيقية جادة ؛ رحلة لصيد وحوش ضارية .. رحلة إلى قلب الغابة السوداء التي لم يطرقها أحد منهما من قبل ؛ و إن كان يحلم بها دائماً في نومه و في يقظته .. يحلم أنه كبر و صار غلاماً قوياً مطيعاً على خلق كريم – كما يجب أن يكون الصياد – فيكافئه أبوه باصطحابه إلى تلك الرحلة البديعة ..

فقد كان أبو مرجان و أخوه أبو حبهان صيادين ماهرين ؛ يحترفان الصيد و يربحان كثيراً من بيع جلود الحيوان و فرائه إلى التجار .. كما كانا أحياناً يعودان من إحدى رحلاتهما بحيوان حي ؛ يحتالان لصيده بالشباك القوية المتينة ؛ أو بقفص حديدي يخفيانه بأوراق الشجر بعد أن يفتحا بابه و يضعا داخله شريحة لحم ؛ و هو مثل مصيدة الفئران في الشكل و لكنه كبير الحجم و حينما يعودان إلى المدينة يبيعان الحيوان الحي بثمن مرتفع جداً إلى تاجر متعهد بتوريد ما تحتاج إليه حدائق الحيوان في جميع أنحاء العالم

كان مرجان و ابن عمه حبهان إذن يحلمان باليوم الذي يعتبرهما فيه أبواهما رجلين يقدران المسؤلية ؛ و يصطحبانهما إلى رحلة في قلب الغابة .. و قد جاء ذلك اليوم البديع الذي حلم به مرجان طويلاً هو و ابن عمه حبهان ..

عادا ذات مساء إلى كوخيهما و قد علق كل منهما على كتفه عوداً علق به السمك الذي صاده من خياشيمه للعشاء ؛ فاستقبلتهما أماهما بأذرع مفتوحة ؛ و استقبلتهما الجارات بالأغاريد ؛ و راحت كل أم تقبل ابنها ؛ و تمسح على شعره بفخر ؛ و تربت كتفه بزهو ؛ و تقول و هي ترقص ؛

– ابني رجل كبير شهم .. ابني رجل كبير شهم .. ..

و كانت الجارات يصفقن و يغنين حول الغلامين و أميهما الفرحتين ؛ و قد سر مرجان جداً بتلك الحفاوة ؛ كما سر بذلك ابن عمه حبهان ؛ لكنهما لم يعرفا السر في ذلك الترحاب الكبير إلا بع أن هدأت الأغاريد قليلاً ؛ فقد دخل أبو مرجان الكوخ و معه أخوه أبو حبهان ؛ و أعلنا أنها سيحتفلان الليلة باستقبال مرجان و ابن عمه حبهان للعام الحادي عشر من عمرهما ؛ إذ يبلغان بهذا العام سن الرجولة و المسؤولية ؛ كما أعلنا أن هديتهما لولديهما بهذه المناسبة هي اصطحابهما في رحلة صيد تستغرق ثلاثة أيام ؛ رحلة إلى قلب الغابة و أحراجها الكثيفة الغامضة .. ..

فراح مرجان و حبهان يقفزان من شدة الفرح ؛ ثم سأل مرجان أباه :

– و ماذا نصيد خلال الأيام الثلاثة ؟

فأجابه أبوه :

– إن التاجر الذي حل بقريتنا هذا الأسبوع يريد عاجاً و جلود نمور ؛ و أنت تعلم لا ريب أن العاج هو سن الفيل ؛ و أن الفيل حيوان صعب اصطياده ؛ كما أن النمر حيوان شرس ضار ؛ فلن تكون رحلتنا سهلة هينة ؛ بل إننا سنتعرض لأخطار جمة ..

و أضاف أبو حبهان :

– إننا لن نأخذ معنا طعاماً و لا فراشاً ؛ حتى لا نجهد أنفسنا بحمل أشياء نحن في غنى عنها ؛ سنسير خفافاً في يقظة و انتباه ؛ سنصيد طعامنا خلال سيرنا ؛ و سوف ننام فوق الأغصان أو في الوديان ؛ هل منكما خائف أو مذعور ؟

فهب كل من مرجان و ابن عمه حبهان واقفاً مرفوع القامة يصيح بقوة و بلا تردد :

– بل أنا شجاع ابن شجاع .. أنا رجل قوي العزيمة اتحمل الصعاب بإذن الله ؛ و لا أرهب وحوش الغابة .. ..

فتهلل الأبوان و صاحا :

– مرحباً .. مرحباً بكما من زميلين في الصيد و القنص و الانتصار بإذن الله .. مرحباً .. مرحباً ..

و أعدت النساء عشاءً شهياً تلك الليلة ؛ و أقيم حفل جميل رقص فيه أهل القرية جميعاً تحت ضوء القمر ؛ و دقت الطبول تعلن انضمام مرجان وحبهان إلى زمرة الصيادين و جاء الناس مهنئين و مشجعين و أهدى الأبوان إلى ولديهما حربتين مسنونتين

و لما تفرق المدعوون و انفض الحفل و عاد كل إلى كوخه ؛ ركض مرجان و ابن عمه حبهان إلى النهر فاستحما ليجددا قواهما ثم تناولا عشاء خفيفاً و ناما .. ..

فلما انتصف الليل أيقظهما أبواهما ؛ و سار الصيادون الأربعة مستترين بالظلمة المنسدلة ؛ يحملون حرابهم و بنادقهم ؛ و وجهتهم الأحراج الكثيفة .. ..

كان الجو منعشاً و الريح ساكنةً ..

و قد سار الصيادون الأربعة محاذرين أن يكشف وجودهم أسد جائع أو خرتيت مشاكس ؛ فيهاجمهم و يضطرهم لصد عدوانه فيضيع الوقت ؛ و تفوتهم الفرصة لاصطياد ما أتوا من أجله : نمر و فيل .. ..

فقرر الأبوان أن يكمن الجميع فوق شجرة على ضفة النهر ؛ و ينتظروا هناك إلى أن يرد النمر الماء فجراً على عادته ليشرب ..

اختاروا شجرة باسقة تتشابك غصونها ؛ و تتدلى منها ألياف طويلة قوية ؛ فتسلقوها يعاون كبيرهم صغيرهم ؛ و كمن مرجان و حبهان فوق غصنٍ عالٍ مستترين بالأوراق الخضر العريضة التي تحاكي آذان الفيلة ؛ على حين قبع كل من أبويهما وحيداً على غصن قريب من الأرض ؛ و انتظروا ؛ لا يتحدثون إلا همساً ؛ أو بإشارات متفق عليها .. ..

و مر الوقت بطيئاً متثاقلاً ؛ و ساد سكون مطبق لا يقطعه نقيق ضفدعة لا حشرة ؛ فكأنما حبس الكون أنفاسه أيضاً يترقب ..

و داعب النعاس عيني مرجان ؛ فحاول الفتى جاهداً صده ؛ و لكن دون جدوى ؛ فتوسد ذراعيه اللتين كان يطوق بهما غصن الشجرة ؛ و استسلم لسبات عميق .. ..

أما حبهان فظل متنبهاً يقظاً ؛ يدور ببصره هنا و هناك ؛ يملأ رئتيه من الأنسام المحملة بشذا الأزهار ؛ و يمتع ناظريه بجمال الطبيعة وقت السحر ؛ حين يمس الفجر مترفقاً صفحة السماء بأنامله البيض في تحية رقيقة ؛ ليكسوها غلالة شفافة فيها لون الورد و صفاء البلور .. ..

و فجأةً طرق سمع حبهان وقع خطوات تدنو من الشجرة ؛ فأطل من مخبئه يرنو مستطلعاً ؛ فندت عنه صيحة كتمها بسرعة ؛ و وكز ابن عمه مرجان يوقظه حتى لا تفوته المشاهدة .. ..

كان هناك أسد مهيب يتقدم أسرته المكونة من أليفته و شبليه ؛ نحو النهر ؛ لتشرب جميعاً قبل أن تسعى وراء رزقها في الغابة ؛ و اندفع الشبلان في طيش الصبا و غروره يلعبان في الماء صاخبين ؛ فما لمحهما تمساح كان متناوماً على الضفة الأخرى حتى انزلق إلى النهر بخفة و سبح نحوهما دون أن يفطنا إليه و في نيته أن يجذب أحدهما من ساقه و يغوص به يغرقه ثم يأكله على مهل

كان هناك أسد مهيب يتقدم أسرته المكونة من أليفته وشبليه نحو النهر لتشرب جميعاً

و لكن الأسد كان بالمرصاد ؛ إذ وقف خلف شبليه – على بعد – يحرسهما ؛ لا تفوته فائتة ؛ فزأر يحذرهما من الخطر القريب ؛ فقفزا مزعجين ؛ و ارتدا عن الماء ؛ و لاذا بأمهما بعيداً عن الموت المحقق .. ..

حينئذٍ كرَّ التمساحُ عائداً إلى الشاطئ المقابل مخذولاً ؛ و قد انكشف أمره ؛ و حبطت محاولته و لم يلبث أن نام ؛ فصبر الأسد عليه قريباً من نصف الساعة ؛ حتى تأكد له استغراقه في النوم ؛ فنزل إلى الماء و سبح نحو التمساح و خرج إليه متلصصاً دون

أن يحدث صوتاً ؛ ثم رفع كفه الضخمة و هوى بها على رأسه ؛ فقتله مكانه ؛ و رددت الغابة زئير الأسد المنتصر و هو يسير مختالاً تحف به أسرته ؛ حتى غابت عن الأنظار وسط الأشجار و الحشائش ..

كاد مرجان و حبهان يسقطان من فوق الشجرة لشدة اضطرابهما ؛ و عظيم اغتباطهما بما شاهدا .. و ما (أن) استعادا ثباتهما حتى ندت عنهما معاً في لحظة واحدة صيحة فرح و سرور ؛ إذ كانت تتهادى نحو النهر رشيقة ؛ لطيفة ؛ زرافة ؛ و وراءهما بنتها .. و كانت الزرافة تتوقف بين حين و حين و تمط عنقها نحو أغصان الأشجار العالية و تقتطف بعض ورقاتها الخضر ؛ فتأكلها متلذذة ؛ ثم تتابع سيرها نحو النهر لتشرب .. أما صغيرتها فكانت تنتهز فرصة توقف أمها عن السير و تلقم ثديها لترضعه ؛ حتى إذا تابعت أمها السير تقافزت الصغيرة خلفها كالغزالة المرحة ؛ فلما وصلتا إلى الماء اندفعت الزرافة الصغيرة إليه تحاول الشرب ؛ و لكن قائمتيها الأماميتين كانتا من الطول بحيث لم تمكناها من الشرب برغم عنقها الطويل ؛ فكررت المحاولة مرة بعد مرة دون جدوى .. أما أمها فكانت واقفة ترقبها في صمت ؛ حتى إذا تعبت الصغيرة و تحيرت في الوصول إلى الماء أسرعت إلى أمها تحك رأسها بجنبها ؛ كأنما تشكو إليها ؛ حينئذ تقدمت الزرافة الأم إلى الماء ثم باعدت ما بين قائمتيها الأماميتين و مطت عنقها الطويل فلامست شفتاها الماء فشربت حتى ارتوت ؛ فأسرعت صغيرتها تقلدها ؛ و باعدت هي الأخرى بين قائمتيها الأماميتين كما فعلت أمها فقصر طولها و استطاعت أن تصل إلى الماء بشفتيها ؛ فراحت تلعقه بلسانها حتى ارتوت هي الأخرى ؛ و أخذت تتقافز حول أمها فرحانة جذلة ؛ على حين انحنت أمها عليها تمسح جلدها الأرقط بلسانها ؛ كأنما تعبر عن رضاها عنها

و فجاةً ؛ رفعت الزرافة الأم رأسها تتشمم الهواء و قد زاغت عيناها ؛ و أرهفت أذنيها الصغيرتين ؛ ثم انطلقت تعدو بذعر ؛ و خلفها صغيرتها تركض بكل ما تملك من قوة ؛ و ابتلعتهما الحشائش العالية ..

فتمطق مرجان بلسانه في أسف و غمغم :

– يا للخسارة .. شد ما كان منظرهما جميلاً ..

فأجابه حبهان :

– أجل ؛ إنها خسارة لنا أن يختفي عن أعيننا منظر الأمومة ذاك ؛ إنه يذكرني بأمي عندما كنت صغيراً ؛ و كانت هي تعلمه (تعلمني) كيف أتناول طعامي و شرابي وحدي ..

فساله مرجان هامساً :

– ترى ماذا أخاف الزرافة الكبيرة حتى اندفعت هاربة هكذا ؛ لا تلوي على شئ و أخذت ابنتها معـها ؟

و لكن قبل أن يجيبه حبهان بكلمة أشار لهما أبواهما أن انظرا بسرعة إلى اليمين .. انظرا .. انظرا .. ..

فلوى الغلامان رأسيهما مسرعين نحو الجهة المشار إليها ؛ ففغر مرجان فمه من وقع المفاجأة و صـاح :

– يا لله .. ..

و ضم حبهان قبضتيه إلى صدره في فرح عظيم و صاح :

– يا لله .. ..

يوم الصيد الأول

كان النهار قد طلع و أشرقت الشمس ترسل أشعتها متوهجة ؛ تتخلل أغصان الأشجار ؛ كأنها أصابع من نور تشير إلى البدائع التي خلقها الله .. ..

فرأى مرجان و ابن عمه حبهان و هما يطلان من أعلى الشجرة نمراً فحلاً يتهادى جهة النهر ؛ و النمر مشهور بالشراسة و الاستماتة في القتال ؛ معروف عنه الحذر و المكر ؛ حتى إنه يسير خطوة ثم يقف يتلفت يمنة و يسرة مستطلعاً ؛ يشم الهواء في كل اتجاه ؛ و ينصت متحفزاً لأقل صوت .. فاستعد له أبو مرجان و أطلق عليه رصاصة سددها إلى جبهته ؛ لكنها انحرفت فأصابت طرف أذنه ؛ فصرخ متألماً ؛ ورفع وجهه – و عيناه تقدحان شرراً – نحو الشجرة التي جثموا فوقها ؛ و كشر عن أنيابه مزمجراً متوعداً ؛ و الدم يسيل على صدغه ؛ ثم تسلل إلى قلب الغابة ..

فنزلوا جميعاً من مخبئهم ؛ و تبعوه ألى مسافة بعيدة ؛ مقتفين آثار أقدامه على الأرض ؛ حتى اختفت الآثار داخل منطقة نمت فيها حشائش ملتقة عالية ؛ فقال أبو مرجان :

– هنا نقف و لا نتقدم خطوة ؛ فالنمر الماكر قد اختبأ عنا داخل هذه الحشائش الطويلة ؛ لأنها تحاكي في شكلها الخطوط التي تزين جلده ؛ فنحن إذا تبعناه وقف ساكناً لا يتحرك ؛ فتزيغ أبصارنا و لا نعرف مكانه على وجه الدقة ؛ فينقض علينا يفترسنا بضراوة و ينتقم منا ..

فأجابه أبو حبهان :

– صدقت يا أخي .. لننتظره في هذه الأرض الخلاء ؛ فإنه جائع حتماً ؛ و ما هي إلا هنيهة حتى يخرج ليصيد غذاءه ..

فصاح مرجان :

– و لم الانتظار يا عماه ؟

فضحك عمه ؛ و سأله مبتسماً :

– بماذا إذن تنصح لنا يا سيد الصيادين ؟

– نمضي لنصطاد ضبعاً أو غزالاً نضعه طعماً للنمر ؛ حيث يراه عن بعد و تتفتح شهيته لرؤيته فيسارع إلى الخروج إليه من مخبئه

فشد أبو مرجان على يد ابنه معتزاً فخوراً ؛ و ربت كتفه قائلاً :

– نعم الرأي رأيك يا بني ؛ هيا بنا ..

فالتفت حبهان إلى أبيه يقول :

– أنا أيضاً لي رأي يا أبتاه .. إذا اصطدنا حيواناً ليكون طعماً للنمر فيجب علينا أن نترك هذا الحيوان حياً حتى نعطيه فرصة الإفلات و النجاة بحياته جزاءً له على الخدمة التي يؤديها لنا ..

فسر أبوه أيما سرور بما عرفه في ابنه من خلق كريم ؛ يجب أن يكون متأصلاً في نفس الصياد الحق ؛ و قال لابنه :

– هذا عدل في نظري يا بني ؛ و سنظل أنا و عمك ها هنا شاهرين بنادقنا و حرابنا نحرس النمر الجريح حتى لا يهرب منا متسللاً أو يفاجئنا و يؤذينا ؛ أما أنت يا حبهان و ابن عمك مرجان فسيرا في حفظ الله و اصطادا الحيوان الذي أشرتما به ..

فانتفخت أوداج الغلامين زهواً ؛ و قفزا بسرور ؛ و هما لا يصدقان ما سمعاه من أبي حبهان .. و انطلق الغلامان في خطوات ناشطة ؛ و اختارا طريقاً يوصل إلى النهر ؛ فحفرا فيه – بهمةٍ و جدٍ – حفرةً لا يزيد عمقها عن متر ؛ و لا يزيد قطرها عن متر أيضاً ؛ و ألقيا عليها بعض الأعشاب و الأغصان الرفيعة اليابسة ؛ بحيث ينخدع الحيوان المار بها ؛ ثم اختبأ كلاهما وراء جذع شجرةٍ غليظٍ ؛ و انتظرا

و لم تلبث أرجاء الغابة أن رددت صدى عواء ؛ و نباح ؛ و ضباح ؛ و زمجرة غاضبة ؛ و أنين مستميت ؛ كأنما هناك قتال مرير تدور رحاه في عنف ؛ و لابد أن ينتهي تبعاً لشريعة الغاب بموت أحد الخصمين ..

فأصاخ مرجان و عيناه تبرقان ؛ ثم همس في أذن ابن عمه :

– ماذا تظن الأمر يا حبهان ؟ أهناك شجار من أجل فريسة أم عراك من أجل أليفة ؟

فوضع حبهان أصبعه على شفتيه يربتهما في حركة شديدة يحذر مرجان من افتضاح أمرهما ؛ و همس بصوت لا يكاد يسمع و هو يشير أمامه :

– انظر .. انظر يا مرجان ؛ تلك و الله مشاهد تساوي عمراً ..

كانت أصوات القتال قد اقتربت حتى أصبحت عالية تصم الآذان ؛ و أطاع مرجان و نظر أمامه و قلبه يخفق بشدة ؛ و قد التصق بابن عمه ؛ فكادت تفلت منه صرخة لولا أن أسرع حبهان فوضع كفه على فمه يكبت الصرخة ..

كانت هناك شرذمة من الغوريلا الكبيرة تحمل 42 . . . . . .

رأى (مرجان) و (حبهان) من مخبئهما فوق الشجرة مجموعة من « الغوريللا » الكبيرة تحمل أغصان الشجر

عليه مرة واحدة تصيح متهللة ؛ و هوت على رأسه ضرباً بالأغصان الثقيلة التي تحملها حتى مات ؛ ثم نصبت قاماتها في زهو و خيلاء ؛ و راحت تدق صدورها بقبضات أيديها دقاً متواصلاً مثل دوي الطبول ؛ كأنما تعلن لوحوش الغاب انتصارها على الأسد ؛ و انتقامها من ذلك الوحش الذي طالما أفزعها أيام شبابه و جبروته و كثيراً ما خطف صغارها و خلفها للوعة و الأسى

و كان مرجان و ابن عمه حبهان يشاهدان المعركة و هما مختبئان وراء جذع الشجرة الغليظ ؛ فانتهزا فرصة اشتغال الغوريللا برقصتها و فرحة انتصارها على الأسد و انصرفا هاربين .. و سارا إلى الحفرة التي حفراها لصيد حيوان يكون طعماً للنمر الجريح ؛ و اختار قريباً من الحفرة مخبأ آخر انزويا فيه . .

و كانت أصوات المعركة المفزعة قد أزعجت وحوش الغابة ؛ فما لبث الغلامان أن أبصرا غزالة تعدو مذعورة يتبعها صغيرها ؛ و كانت تتوقف بين حين و حين ؛ و تدور بعينيها الجميلتين حولها في حيرة ؛ كأنما تبحث عن ملجأ أمين ؛ و غاب عنها في لهفتها و ذعرها أن الخطر قد يكمن تحت أقدامها ؛ فمل لبثت ساقها اليمنى أن تعثرت في الأعواد اليابسة التي تغطر فوهة الحفرة ؛ فانكفأت على وجهها و راحت تتخبط تحاول الفكاك دون جدوى ..

فهب مرجان و حبهان يبسطان عليها شبكتهما دون أن يمساها بأذى ؛ و كانت الغزالة تتطلع إلى صغيرها الوحيد الذي توقف عن العدو و ارتد إليها يلصق رأسه برأسها ؛ فرق قلب مرجان و غمغم في صوت يرتعش و هو يمسح فوق الغزال الصغير بحنان

– لا تخشى شيئاً أيها الجميل ؛ لن نمس شعرة من بدنك بسوء ؛ و كذلك أمك من أجلك ؛ أنتما في أمان معنا يا حبيبي الصغير .. كل ما في الأمر أننا في حاجة إلى معونتكما ..

ثم حمله على ذراعيه مترفقاً ؛ و تبع حبهان و قد سار يسحب الغزالة وراءه ؛ بعد أن ربطها بحبل حول عنقها ..

و كان النهار قد انتصف ؛ فلما شم النمر الجريح الجائع و هو في مخبئه بين الحشائش العالية رائحة الغزالة و ابنها زمجر متلمظاً ؛ و قد تحركت شهيته ؛ و سال لعابه ؛ فكاد مرجان يطلق سراحهما من شدة حبه لهما و إشفاقه عليهما ؛ لولا أن طمأنه أبوه و استمهله حتى تنجح الخطة المرسومة ..

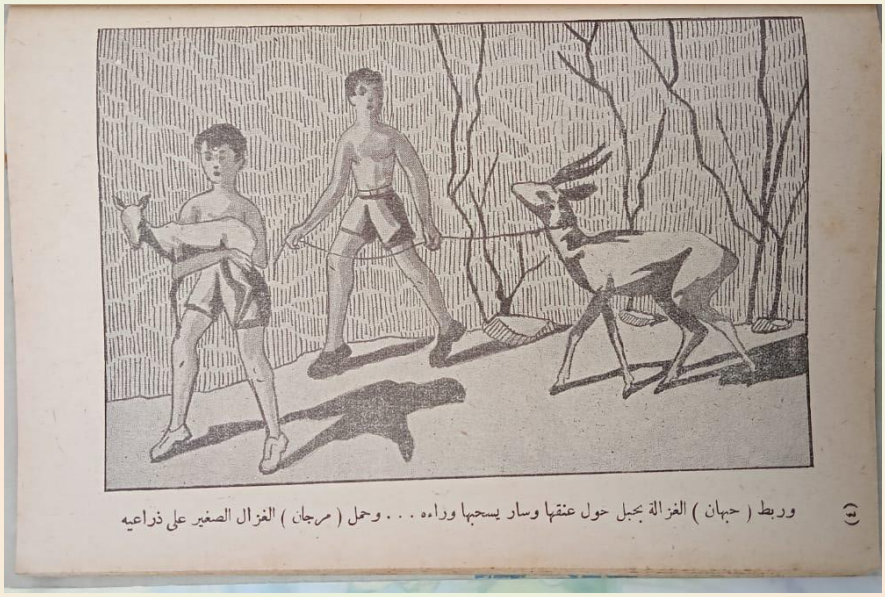

وربط (حبهان) الغزالة بحبل حول عنقها وسار يسحبها وراءه . . . وحمل (مرجان) الغزال الصغير على ذراعيه

ثم دق أبو مرجان وتداً في الأرض على بعد عشرة أمتار من الحشائش العالية و قيد الغزالة إليه ؛ فمط الغزال الصغير عنقه و راح يرضع من ثدي أمه و يهز زيله فرحان جذلاً ..

و كانت الغزالة منذ سمعت زمجرة النمر مضطربة أيما اضطراب ؛ لا تستقر على حال ؛ تكاد تهلك من شدة الهلع و الذعر ؛ فتربص الصيادان – أبو مرجان و أبو حبهان – للنمر على جانبي الغزالة ؛ حتى إذا جازف النمر الذي عضه الجوع و أطل بعنقه لحظة ثم خطا خطوة متلصصاً نحو الطعام الشهي انطلقت رصاصتان أصابتا جانبي رأسه ؛ فخر مكانه صريعاً ؛ و أظفاره لا تبعد كثيراً عن الغزالة و ابنها .. ..

فقفز مرجان و حبهان فرحين ؛ و انحنيا يحلان قيد الغزالة العزيزة فلما شعرت بالحرية أطلقت ساقيها الدقيقتين تسابقان الريح يتبعها ابنها قافزاً نافراً .. ..

و همهم الغلامان و هما يلوحان بأيديهما يودعانهما :

– مع السلامة ؛ حفظكما الله و رعاكما ؛ و نجاكما من كل خطر ..

ثم أخرجا سكيناً و مطواةً و راحا يعاونان أبويهما في سلخ النمر بخفة و حذر كيلا تنفلت السكين أو المطواة فتثقب الجلد فتقل قيمته و يبخس ثمنه .. فلما فرغا من ذلك أخرجا قلبه و أوقدا ناراً أنضجاه عليها ؛ ثم اقتسمه الصيادون الأربعة ..

و هب حبهان نشيطاً فتسلق الأشجار ؛ و جمع من فاكهتها الغضة الشهية فتناول كل منهم نصيباً أكله ؛ و بعد أن حمدوا الله و شكروه على نعمته قاموا إلى جلد النمر البديع و أخذوا يدلكونه بالملح الذي جاءوا به معهم ليزيلوا ما علق بالجلد من دم و شحم .. ثم قطعوا أربعة أغصان متساوية في الطول و غرزوها في الأرض متقابلة – كأعمدة السرير – و ثبتوا عليها جلد النمر النظيف المملح منشوراً ليجف في الشمس الحامية ..

و قال أبو مرجان و هو ينفض يديه راضي النفس :

– الحمد لله ؛ سنكتفي الآن بما أحرزنا في يومنا الأول من نصر و توفيق ؛ و نمضي الباقي من نهارنا هنا ؛ إلى جوار الجلد الثمين ؛ نحرسه حتى يتم جفافه .. ..

فاندفع حبهان يسأل :

– و ما الخطوة التالية يا عماه بعد أن يجف الجلد ؟

فقال له أبوه :

– صه ! .. ارقب من هم أكبر منك في صمت و انتباه و تعلم منهم ؛ و لكن عليك بشئ هو أول ما يجب على الصياد أن يتعلمه جيداً : الصبر .. ..

فربت أبو مرجان كتف ابن أخيه حبهان بحنان و قال :

– صدق أبوك يا بني .. خير التعليم ما كان بالمراقبة و الملاحظة ؛ و مع ذلك فإني في هذه المرة سوف اسبق الزمن و أشبع رغبتك في معرفة ما سوف نفعل عندما يتم تجفيف جلد النمر : إننا يا بني سوف نطويه بعنايةٍ بالغةٍ عندما يهبط الليل و نغطيه بأوراق الشجر العريضة ؛ ثم نربطه ربطاً محكماً حتى لا يفسده ندى أو مطر ؛ و حتى يسهل علينا حمله .. ..

و أرسلت الشمس أشعتها الملتهبة على الجلد الثمين المنشور على أغصان أربعة ؛ فاستلقى مرجان و حبهان هما و أبواهما في ظل شجرة وارفة يستريحون و يتبادلون النوادر و الحكايات .. ..

و قص عليهم أبو مرجان مغامرة وقعت له ذات يوم في الغابة ؛ إذ هاجمه خرتيت بغتة دون أن يستعد هو لملاقاته ؛ و لم يكن أبو مرجان قد رآه ؛ فبوغت بوقع حوافر تضرب الأرض خلفه ضرباً شديداً ؛ كأنما هناك فرقة من الجنود المهاجمة بأحذيتها الغليظة الحديدية ؛ فدار بسرعة يستطلع الأمر ففوجئ بمنظر يثير الرعب : خرتيت ضخم لا يقل وزنه عن ثلاثة أطنان يتجه نحوه و رأسه مستعد للهجوم ؛ و قرنه الواحد الهائل مشرع كالسيف ..

و المعروف عن الخرتيت أنه حيوان سئ الخلق يهاجم – دون أدنى سبب – كل من يشم رائحته ؛ سواء أكان حيواناً أو إنساناً .. و لكن الله الرحيم الذي خلق الخرتيت بذلك الجِرم الضخم و أعطاه قوة طاغية و قرناً حاداً و جلداً غليظاً ؛ جعله ضعيف البصر ؛ فالخرتيت يسير بحاسة الشم أكثر مما يسير بحاسة الإبصار ؛ ثم هو لثقل وزنه يجد صعوبة في تغيير اتجاهه بعد أن ينطلق هاجماً نحو هدف معين ..

فبرقت عينا مرجان و هو ينصت لرواية أبيه ؛ ثم سأله بصوت تملؤه لهفة :

– كيف إذن استطعت النجاة من ذلك الوحش العنيف ؟

فابتسم أبو مرجان و ربت كتف ابنه قائلاً :

– نجوت بفضل الله ؛ فلقد كنت ساعتئذٍ واقفاً أمام شجرة أحمل بندقيتي ؛ لكنني لم أجد الوقتَ لأنزلها عن كتفي و ادافع بها عن نفسي ؛ أو اصد الخرتيت الذي يشبه الجدار المتدحرج نحوي ؛ فالهمني الله أن القي بنفسي على الأرض بعيداً عن الشجرة ؛ و قد تم كل ذلك في أقل من دقيقة ؛ فرأيت الخرتيت لم يغير اتجاهه بل ظل مندفعاً كالقذيفة نحو الشجرة حيث كنت واقفاً بادئ الأمر عندما حملت الريح إليه رائحتي ؛ فلما ارتطم بجذع الشجرة في اندفاعه أيقنت أن قرنه قد انكسر و لكن خاب ظني ؛ فقد اعتدل الخرتيت و قرنه سليم كما هو ؛ ثم راح يضرب به جذع الشجرة في شراسة و غل مرة بعد مرة كأن بينهما عداوة قديمة ..

فضجوا جميعاً بالضحك ..

ثم التفت الغلامان إلى أبي حبهان و طلبا منه أن يروي لهما هو الآخر نادرة من نوادر الصيد في الغابات ..

فقال أبو حبهان :

– إن النوادر كثيرة ؛ و لكن النادرة التي تسعفني بها الذاكرة الآن هي أكبر دليل على أن القوة وحدها ليست سلاحاً كافياً للغلبة في الغابة ؛ بل إن الذكاء و الحكمة سلاحان أبعد أثراً ..

فزحف حبهان و التصق بجانب أبيه حتى لا تفوته فائتة و سأله :

– كيف ذلك يا أبي ؟

فأجابه أبوه :

– عندما كنت أنا و عمك أبو مرجان غلامين في مثل عمركما كانت لنا جدة عجوز بلغت من العمر ثمانين عاماً ؛ و كانت نحيلة ضعيفة ضئيلة الحجم .. لكنها كانت على قدر وافر من الذكاء و الفطنة ؛ و كان يعيش في النهر تمساح ضخم معمر ؛ طالما اختطف الماشية و الأطفال بل النساء أيضاً .. و كانت حيوانات الغابة تخشاه و لا تقرب الماء حتى ينام ؛ و كان أهل قريتنا يرتعدون منه ؛ و كثيراً ما فكروا في حيلة لقتله و الخلاص منه لكنه كان أشد منهم مكراً و دهاءً ؛ فكان ينجو كل مرة ؛ أو يختفي أياماً في قرار النهر عندما يشعر بغريزته أن هناك مؤامرة لقتله ؛ حتى إذا اطمأن الناس و هدأت نفوسهم شيئاً و التفتوا إلى

أعمالهم فاجأهم و اختطف خروفاً أو طفلاً .. و أخيراً ذهبوا إلى جدتي العجوز يستشيرونها ؛ فقد كان جدي زوجها صياداً بارعاً في حياته ؛ و قد تعلمت هي منه فنوناً كثيرة .. ..

فقالت جدتي للرجال الحائرين :

– سأقتل أنا بيدي الضعيفتين هاتين التمساح الذي تخشونه جميعاً ؛ كل ما اطلبه منكم هو أن تأتوا لي بخروفين صغيرين ؛ و بقليل من الجير النئ ! .. ..

و هرول الرجال يأتون لها بما طلبت ؛ ثم التفوا حولها ليروا ما هي فاعلة .. فقامت جدتي العجوز إلى أحد الخروفين فذبحته و سلخته و أخرجت أحشاءه ؛ ثم ملأت بطنه بالجير النئ .. و خاطت بطنه كما كان ..

فتقافز مرجان و حبهان من فرط التطلع و التعرف و راحا يتساءلان :

– و ماذا بعد ذلك ؟ ماذا فعلت جدتكما الذكية ؟

فاستطرد أبو حبهان ضاحكاً :

– و بعد ذلك قيدت الخروف الآخر بحبل حول عنقه ؛ و سحبته منه إلى شاطئ النهر ؛ و هي تحمل الخروف المذبوح على رأسها ؛ و سار خلفها كل أهل القرية : من رجال و نساء و أطفال .. لم يصدقوا أن تلك العجوز الضعيفة ستقتل التمساح بلا سلاح ؛ فلما اقتربوا من الشاطئ أشارت لهم جدتي أن يختبئوا بعيداً ؛ تحت مهب الريح ؛ بحيث يرون كل ما يدور ؛ و دون أن يراهم التمساح أو يشم لهم رائحة .. أما هي فوضعت الخروف المذبوح على شاطئ النهر قريباً من مياهه .. ثم دقت وتداً بقرب شجرة ؛ و قيدت الخروف الحي إليه ؛ و اختبأت هي خلف الشجرة ؛ و راحت بين وقت و وقت تعرك أذن الخروف فيصيح بصوت عال ؛ حتى تنبه التمساح المستخفي تحت سطح الماء ؛ فبرز من مخبئه يستطلع الأمر ؛ فشم رائحة خروف مذبوح شهي ؛ و ما رأى أحداً و لا شم رائحة أحد إلا الخروف الصغير الحي الذي راح يصيح خائفاً ؛ و لكن التمساح لم يجازف و يخرج إليه من الماء ليخطفه ؛ بل إنه اكتفى بالخروف المذبوح الملقى قريباً منه على الشاطئ فانقض عليه في مثل لمح البرق و أطبق عليه فكيه و راح يلتهمه في شراهة عجيبة ؛ ثم غاص ثانية تحت الماء .. و لم تنقض دقيقة واحدة حتى شاهد أهل القرية المختبئون خلف الأشجار منظراً لم ينسوه طوال حياتهم .. رأوا التمسح يندفع أفقياً من الماء و هو يصرخ و يتلوى من الألم و الدخان يخرج من فمه كأنما جوفه يحترق ؛ فإن الجير النئ – الذي دسته جدتي العجوز في بطن الخروف المذبوح – اختلط بالماء في بطن التمساح ؛ و سرعان ما انلعت فيه النار ؛ و لم يلبث التمساح أن مات ؛ و انقلب على ظهره ؛ و طفا على سطح النهر .. ..

فتهلل أهل القرية و حملوا جدتي العجوز على أعناقهم ؛ تكريماً لها ؛ و أقاموا حفلاً تلك الليلة ابتهاجاً بخلاصهم من عدوهم اللدود ؛ و أهدوا جلد التمساح إلى جدتي بعد أن سلخوه و حشوه قشاً ؛ و علقوه على باب كوخها .. ..

فطرب مرجان و ابن عمه حبهان لتلك الحكاية طرباً شديداً .. ..

و هكذا انقضى النهار في أسمار و حكايات ؛ و هم يحرسون جلد النمر المنشور للهواء و الشمس يجففانه ..

و مالت الشمس للمغيب و صفقت الطيور بأجنحتها فوق رؤوس الصيادين الأربعة و هي تطير في جماعات كبيرة مزقزقة عائدة إلى أعشاشها لتنام ..

فقام أبو مرجان و أخوه أبو حبهان إلى جلد النمر فطوياه بعناية فائقة و غطياه بأوراق الشجر العريضة و أخفياه بين الأمتعة و الأدوات .. ..

و هبطت الظلمة و كان الليل بلا قمر و لا نجوم ؛ فتعاون الصيادون الأربعة و جمعوا حطباً كثيراً و أوقدوا ناراً كبيرة .. ثم التفوا حولها يستدفئون ؛ و يلوذون بجوارها من شر سكان الغابة التي كانت عيونها تبرق في الظلام كفصوص زمرد مضيئة .. ..

و فجأة شقت السكون ضجة مفزعة ؛ ثم برز للعيان ضبع ضخمة غبراء اللون ؛ و تبعتها ضبع ثانية ؛ ثم ضبع ثالثة ؛ ثم مجموعة حاشدة من الضباع .. ..

فجعل أبو مرجان يبادل أخاه أبا حبهان نظرات التساؤل ؛ ثم قاما في صمت إلى جثمان النمر الذي انسلخ جلده فحملاه بينهما ثم قذفا به بعيداً ناحية الضباع الجائعة المحومة ؛ و عادا إلى ولديهما ..

فترامت الضباع على جثمان النمر تنهشه .. ..

و لم يلبث أن مر بوليمة الضباع أسد فتي بديع الهيئة ؛ مرفوع الرأس ؛ يضرب بذيله يميناً و شمالاً ؛ و هو يسير في اتزان و خيلاء ؛ و لما كان الأسد لا يهاجم إنساناً و لا حيواناً إلا إذا جاع أو هاجمه أحد ؛ فقد مر ذلك الاسد بالصيادين الأربعة الجالسين في سكون ؛ دون أن يصيبهم بأذى ؛ كما مر بالضباع دون أن يعيرها التفاتاً ؛ و لكن الضباع توقفت عن المضغ إجلالاً له و رعباً منه و تقهقرت بعيداً إلا أن الأسد سار في طريقه مترفعاً أبياً ؛ إنه ملك الغابة لا يأكل من فضلات ما يأكل غيره ؛ لا يأكل إلا ما يصيده بنفسه ؛ فيأكل حتى يكتفي و يدع الفتات المتبقي منه لتقتات به الحيوانات المستضعفة المتهيبة ؛ كالضباع .. فلما غاب الأسد في طيات الظلام عادت الضباع تدس رؤوسها في بطن النمر لتنهش لحمه نهشاً ..

و قبع كل من مرجان و حبهان إلى جوار أبيه يرقب بعينين تلمعان كيف تحيا سكان الغابة ؛ و كيف تمارس العيش ؛ و كانا يتهامسان في حديثهما و يتبادلان الآراء فيما فيما يدور حولهما ؛ حتى إذا اختلفا في شئ مالا على أحد أبويهما ليفصل لهما فيما اختلفا فيه .. ..

و مازالا كذلك حتى أثقل النعاس أجفانهما فتكورا قرب النار و راحا في سبات عميق .. ..

يوم الصيد الثاني69

قبل الفجر بساعة أيقظ الصيادان الكبيران ولديهما استعدادا للتوغل في الغابة ؛ منتهزين فرصة الجو الرطب الجميل ؛ قبل طلوع الشمس و اشتداد الحرارة ..

و حمل أبو مرجان جلد النمر مطوياً على كتفه ؛ كما حمل بندقيته على كتفه الأخرى ؛ و سار في المقدمة .. و تبعه مرجان و حبهان ؛ يمسك كل منهما بحربته المسنونة ؛ أما أبو حبهان فسار في المؤخرة ؛ يحمل بندقيته و يحمي ظهر القافلة الصغيرة .. فكان يتوقف و يتلفت حوله بين وقت و وقت ؛ حتى لا يفاجئهم حيوان غادر .. و فجأة صاح يصرخ :

– يا أخي .. يا أخي ..

فدار أبو مرجان – و كان يسير في المقدمة – على عقبيه في ومضة عين شاهراً بندقيته استعداداً لنجدة أخيه ؛ أما مرجان و ابن عمه حبهان فقد توقفا فجأة ؛ و قد ألجمهما الرعب ؛ إذ كان يتدلى من شجرة ضخمة عالية – فوق رءوسهم تماماً – ثعبان عملاق من نوع البوا ؛ يبلغ طوله نحو خمسة عشر متراً ؛ أما جسمه فغليظ ؛ و قوامه مثل خصر الرجل العادي ..

رأى الصيادون الأربعة الثعبان و قد التف بذيله حول غصن الشجرة ؛ و راح يترجح يميناً و شمالاً ؛ رافعاً رأسه في تحفز و غدر ؛ و عيناه المستديرتان تلمعان ؛ و لسانه المشقوق يلعق الهواء .. ..

و كان أبو حبهان قد وقف مكانه لا يتحرك كي لا يستفز ثعبان البوا المخيف ؛ فيلتف حول جسمه ؛

و يضغط عليه بقوته الهائلة حتى يفتت عظامه ..

فهمس أبو مرجان بصوت رقيق يطمئن أخاه :

– لا تخف يا أخي .. ظل مكانك هادئاً ساكناً ؛ لا تتحرك .. لا تتحرك ..

كان يقول ذلك و هو يرفع بندقيته إلى كتفه بحذر ؛ و يوجه فوهتها ناحية الثعبان الذي يترجح على غصن الشجرة في رقصة الموت .. و لكن الصياد لفرط اضطرابه و لهفته على أخيه لم يصب من الثعبان مقتلاً .. انطلقت من بندقيته رصاصة خدشت عنق الثعبان ؛ فتراجع زاحفاً على غصنه .. و كان أبو مرجان يستعد لإطلاق رصاصة ثانية تردي الثعبان قتيلاً ؛ لولا أنه اختفى بين أوراق الشجرة و أليافها المتكاثفة ..

و في تلك اللحظة عينها مرق تحت الشجرة لسوء طالعه حمار وحشي مخطط ؛ لا شك أن صوت الرصاصة أخافه ؛ فانطلق من بين الأحراج حيث كان يرعى ؛ و اندفع يركض بلا هدف و مرق في انطلاقه تحت الشجرة التي يكمن فوقها ثعبان البوا ..

فارتاع الصيادون الأربعة عندما انطلق الثعبان كالسهم من بين أغصان الشجرة و التف بجسمه البالغ طوله خمسة عشر متراً حول الحمار الوحشي .. التف حوله من رأسه إلى حوافر أقدامه ؛ و راح يضغطه بقوته الهائلة كلها .. ..

فراح الحمار الوحشي المذعور يقفز و يقفز و يضرب بجسمه جذوع الأشجار محاولاً قتل غريمه .. أما الثعبان الجبار فكان يزيد الضغط على جسم الحمار ؛ فارتمى الحمار المسكين على الأرض ؛ و راح يتدحرج حتى يتخلص من الثعبان دون جدوى فاستلقى مستسلما ؛ و عيناه زائغتان و أنفاسه متلاحقة و لسانه مدلى ؛ و قد عجز عن إلقاء الشيطان الرابض فوق ظهره ؛ ذلك الذي يلتف حول جسمه كله و يهشم عظامه تهشيما .. و كان الثعبان يفح فحيحاً عالياً مخيفاً كالمنفاخ الضخم .

فجذب الصيادان الكبيران ولديهما و هرولوا جميعاً يلوذون بالفرار من الخطر المميت ..

فغمغم مرجان و هو يكاد يبكي : مسكين هذا الحمار الوحشي ..

فأجابه أبوه : هذه شريعة الغاب : القوي يغلب الضعيف ! .. لا تحزن يا بني على الحمار الوحشي ؛ فهو لن يتألم طويلاً ؛ لا ريب أنه مات الآن و لم يعد يشعر بألم .. أما الثعبان فسوف يظل يضغط جثة الحمار حتى تتفتت العظام تماماً ؛ فيفتح فمه المطاط إلى أقصاه و يبتلعه .. ..

فصاح حبهان بدهشة :

– يبتلع الحمار كله دفعة واحدة !

فأجابه عمه :

– أجل يا بني ؛ سيبتلع ثعبان البوا الحمار الوحشي دفعة واحدة ؛ و لكن بعد أن يصير شكله كأصبع الإنسان ؛ متساوياً سهل الابتلاع .. ..

فهز حبهان رأسه في عجب شديد و وضع ذراعه حول كتف ابن عمه مرجان ؛ و سارا معاً ضمن القافلة ؛ يتحدثان بصوت خافت عما و عما شاهداه من فورهما .. ..

سارت قافلة الصيادين ساعة ثم ساعتين و أفطروا في طريقهم و كان فطورهم بيض نعامة و بعض الفاكهة ثم استأنفوا السير ثانية

و مرت ساعة أخرى ؛ ثم ساعاتان ؛ و لم تعثر قافلة الصيادين على فيل ؛ و لا على آثار أقدامه على الأرض ؛ و علت الشمس و توسطت كبد السماء ؛ و اشتد الحر ؛ و هجعت الوحوش تختبئ في الظلال و الكهوف من وهج الشمس المحرقة ؛ ولاذت الطيور كبيرها و صغيرها بأغصان الأشجار تحتمي بأوراقها الظليلة .. ..

و تعب مرجان و تعب ابن عمه حبهان لكنهما خجلا و لم يبوحا لأبويهما ؛ و لكن خطواتهما وشت بهما فقد صارت بطيئة متثاقلة .. و لحظ الأبوان الأمر فألقى أبو مرجان حمله على الأرض ؛ و أعلن لأعضاء القافلة الصغيرة قوله :

– سنستريح هنا إلى جوار تلك الأزهار الحمر ؛ و سنتناول غداءنا حتى تخف حدة الشمس ..

فأجابه أخوه أبو حبهان :

– و هو كذلك يا أخي موافقون .. ..

فما سمع مرجان و ابن عمه حبهان هذا الكلام حتى ارتميا على الأرض فوق فراش من أزهار برية عطرة ؛ و راحا يتمرغان في سعادة و هما يضحكان ؛ و يغنيان ؛ و يثرثران ؛ ثم يغمضان أعينهما لحظة و يستريحان .. ..

فرمقهما أبواهما في غبطة و رضا ؛ ثم قال أبو مرجان للغلامين الصديقين :

– عندما تفرغان أيها الصيادان العظيمان من الراحة و الغناء نرجو منكما أن تذهبا و تأتيا لنا بشئ نأكله في وجبة غدائنا ؛ فنحن كما تعلمان لم نحمل معنا طعاماً من القرية ؛ إن خيرات الله كثيرة حولنا هنا .. فهب الغلامان نشيطين و قال مرجان :

– سمعاً و طاعة يا أبي

و أضاف حبهان :

– سوف تتناول يا عمي أنت و أبي بإذن الله غداء طازجاً شهياً من صيد أيدينا .. ..

فضحك أبوه و ضحك عمه ؛ أما الغلامان فحمل كل منهما حربته المسنونة ؛ و توجها في خطوات نشيطة خفيفة نحو النهر ..

فشربا حتى ارتويا ؛ ثم ألقيا بنفسيهما في مياهه العذبة المرطبة و راحا يسبحان و يتسابقان حتى انتعشا .. ..

فتسلقا صخوراً تعتري مجرى النهر ؛ و وقفا على صخرة منها عالية شاهرين حربتيهما في تحفز و صمت دون أن تبدر من أحدهما حركة ؛ كيلا يخيفا السمك ؛ و وقفا كتمثالين جميلين من البرونز .. ..

و فجأة انقض مرجان بحربته و غرزها في ظهر سمكة كبيرة مرت أمامه ؛ و رفعها فرحان متهللاً ؛ و لما كان السمك يسبح في جماعات فقد انقض حبهان هو الآخر بحربته في تلك اللحظة عينها و صاد سمكة كبيرة و رفعها عالياً فرحان متهللاً .. ..

و قفلا عائدين إلى أبويهما و هما يترنمان بأغنية من أغاني الصيد ؛ و يدبان على الأرض بفخر و زهو ؛ فجمعا حطباً و أشعلا ناراً ؛ و جلسا يطهوان السمكتين ؛ الكبيرتين اللتين لا يقل وزنهما عن أربع أقات ؛ و اقتسم كل غلام سمكته المشوية مع أبيه ؛ و نعم بشكره و ثنائه .. ..

و لما خفت حدة الحرارة شيئاً استأنفت قافلة الصيادين الأربعة السير ؛ ظلوا يبحثون عن فيل يصطادونه ؛ و يأخذون نابيه العاجيين الثمينين ؛ و لكن ذهب بحثهم سدى ؛ لم يبتسم لهم الحظ في ذلك اليوم ؛ كأنما انشقت الأرض و ابتلعت الأفيال جميعها .. ساروا ساعات طويلة ؛ لكنهم لم يعثروا على أثر واحد لفيل ؛ و حل بهم التعب ؛ فراحوا يجررون أقدامهم جراً من فرط إجهادهم ؛ و انقضى النهار و مالت الشمس للمغيب دون أن يفوزوا بمطلبهم ..

و اشتد بهم الجوع ..

و فجأة لاح لهم عن بعد قطيع من الجاموس الوحشي يرعى في هدوء ؛ و كان على رأس القطيع فحل ضخم مرهوب القرون ؛ هو الرئيس الذي يقود القطيع إلى المراعي ؛ و إلى الماء .. و هو الذي يدافع عن القطيع و يهرب به إلى الأمان عند الحاجة ..

فأشار أبو مرجان إلى أفراد قافلته الصغيرة كيلا يأتوا بحركة أو يصدر منهم صوت .. ثم أخذ يسترق خطاه ؛ حتى اقترب من القطيع الغافل ؛ و أطلق أول رصاصة فأصابت بقرة فتية اندفعت برغم جرحها هاربة إلى الأحراج في رعونة و جنون ؛ فانتشر بين القطيع اضطراب و ذعر ؛ و تفرق دون نظام ؛ إلا القائد ؛ فقد رفع رأسه الضخم يتشمم الهواء ؛ لكنه لم يدر من أين يأتي

الهلاك ؛ فقد كان الصيادون تحت مهب الريح ؛ فطأطأ رأسه و هو يخور بصوت عميق ؛ فتجمع القطيع كله حوله مرة أخرى ؛ و أكب يرعى ثانية هنا و هناك ؛ يقتلع الحشائش الكثيفة بأشداقه القوية ؛ و يطحنها بأسنانه التي هي كالحجارة صلابةً .. ..

فتسلل الصيادون خلف البقرة الهارية التي جرحها أبو مرجان برصاصته ؛ مهتدين بنقط من الدم تساقطت من جرحها على الأرض ؛ و لم يمشوا طويلاً حتى الفوا انفسهم فجأة وجهاً لوجه مع البقرة الوحشية الجريحة ؛ و كانت قد اختبأت منهم بخبث و دهاء خلف شجرتين تتعانق غصونهما و تتشابك .. فلما شمت البقرة رائحتهم التفتت و رأتهم ؛ فبرزت من مخبئها غاضبة غضبا جنونيا و رأسها مستعد للهجوم ؛ و قرناها الحادان مسرعان ؛ و ذيلها مرفوع في ثورة كأنه سوط ستهوي عليهم به ..

وبرزت البقرة الوحشية من مخبئها . . . أما « حبهان » فقد تعلق بغصن شجرة . . .

أما مرجان ففوجئ مفاجأة شديدة فتقيد مكانه ؛ و عيناه جاحظتان ؛ فجذبه أبوه بسرعة من ذراعه ؛ و ألقاه على وجهه بعيداً عن حوافر البقرة الوحشية الهائجة ؛ و أما حبهان فأثبت أنه سريع البديهة ؛ فقد قفز في خفة القرود و مهارتها و تعلق بغص شجرة يتدلى فوق رأس البقرة تماماً ؛ و هكذا نجا من قرنيها المرهوبين ..

و أما أبو حبهان فقد واجه البقرة بشجاعة و حماسة ؛ و أطلق عليها رصاصتين متتابعتين أجهزتا عليها ؛ فخرت صريعة ؛ و قرناها المخيفان لا يبعدان عن قدميه أكثر من نصف متر ..

فقام إليها أبو مرجان و أخوه أبو حبهان و سلخاها ؛ و اقتطعا شريحة سخية من لحمها ؛ كما انتزعا كبدها لتتعشى بها القافلة ..

و فجأة و دون سابق إنذار – كشأن الطبيعة في الأدغال – اختفت الشمس قبل موعد الغروب ؛ و برق الرعد ؛ و هطل مطر غزير كأفواه القرب ؛ و أظلم الكون إلا من أضواء البرق التي تلمع بين الحين و الحين ..

فقال أبو مرجان :

– لنختبئ هنا حتى تخف حدة الأمطار

و جاع مرجان و جاع ابن عمه حبهان ؛ فتشاورا في همس لحظة ؛ ثم قال مرجان موجهاً حديثه إلى أبيه و عمه :

– لنمض ليلتنا إلى جوار هذه المجموعة من الأشجار إن أغصانها تتداخل وتتشابك و تصنع كوخاً طبيعياً يحمينا من المطر و البرد

فأجابه أبوه و عمه في صوت واحد :

– و هو كذلك .. لنمض ليلتنا هنا

و حطوا رحالهم في الكوخ الطبيعي الذي تشكله أشجار الغابة ؛ و نشط الغلامان إلى جمع قطع من الحطب و الغصون الرفيعة و أوراق الشجر المتساقطة ..

و حاولا إشعال نار يستدفئون بها جميعاً ؛ و ينضجون على لهيبها اللحم و الكبد ؛ و لكن دون جدوى ؛ رفضت الأغصان المبللة المشبعة بمياه الأمطار أن تشتعل ؛ و تركتهم للبرد و الجوع .. و كانت ثيابهم أيضاً مبللة ؛ و الجوع يعض أجشاءهم عضاً

فارتعشت شفتا حبهان ؛ و كان على وشك أن يبكي من شدة اليأس ؛ فقد تذكر دفء الكوخ اللطيف النظيف الذي تهيئه أمه ؛ و العشاء اللذيذ الذي تعده كل ليلة ؛ ثم تذكر فراشه النظيف الخاص به ؛ ذلك الفراش المسوى من فرو خروف أبيض طويل الشعر .. تذكر هذا كله و ارتعشت شفته .. ..

فلكزه ابن عمه مرجان حتى لا ينخرط في البكاء ؛ و همس في أذنه :

– نحن الآن رجلان كبيران ؛ و أملنا كبير أن نصبح صيادين ماهرين كأبوينا ؛ و الصياد الحق يتحمل الصعاب و المشاق بروح رياضية و شهامة

و لكن موجة البكاء التي تملكت حبهان كانت قوية ؛ فغمغم بصوت متقطع :

– سامحني يا أخي .. يا مرجان .. فإن هذه أول رحلة صيد جادة اشترك فيها

و كادت دموعه تسيل على خديه لولا أن مرجان صاح به يزجره :

– لو لمح واحد من أبوينا دمعة واحدة تنحدر على خدك أو على خدي لأصيب بخيبة أمل كبيرة فينا ؛ و لأعادانا من فورنا إلى القرية ؛ و لرفضا بعد ذلك أن نصاحبهما في رحلاتهما ؛ فنعود طفلين لا رجلين ؛ و نلهو مع أطفال الجيران .. هل يعجبك هذا ؟! .. و هل ترضى بالسخرية التي سيلقانا بها أهل قريتنا ؟! ..

فعض حبهان شفته ؛ و دفع دموعه حتى لا تسيل على خديه ؛ فلما هدأ مال على أذن ابن عمه مرجان و قال له :

– لكنني جائع

فأجابه مرجان :

– لا بأس بذلك إنني أنا أيضاً جائع كل إنسان يجوع مثلنا لو سار طويلاً على قدميه كما سرنا نحن اليوم ولابد أن أبوينا أيضاً جائعان

هنا ضحك أبو مرجان و صاح بالغلامين :

– فيم تتهامسان ؟ في الجوع ؟!

فرمق حبهان ابن عمه مرجان في صمت و لم يجب ..

أما مرجان فقال بشجاعة و أدب :

– أجل يا أبي .. نحن جائعان

فصاح أبوه ضاحكاً :

– إذن ماذا تنتظران ؟ .. هيا ؛ أيها الصيادان العظيمان و جهزا لنا اللحم للعشاء ..

فقال حبهان و صوته يرتعش :

– لقد حاولنا يا عمي أن نشوي اللحم ؛ لكننا لم ننجح في إشعال نار بالأغصان التي جمعناها ؛ فقد تشبعت كلها بمياه الأمطار

فقال أبو حبهان :

– على الصياد أن يكون صبوراً ؛ طويل البال ؛ رحب الصدر ؛ يتلقى الصعاب و الجوع و البرد بإيمان و عزيمة قوية ؛ و شجاعة ؛ فليس الصيد نزهة جميلة بين أشجار و أزهار ناضرة و حسب ؛ ألا توافقاني على كلامي هذا ؟

فغمغم حبهان : أجل يا أبي

و غمغم مرجان : أجل يا عمي

فقال أبو حبهان : علينا إذاً الآن أن ندعك اللحم بالملح وندعه جانباً لإفطارنا أما الليلة فسنكتفي ببعض الفاكهة الدسمة المغذية

قال هذا و قام يتسلق شجرة جوز هند عالية في سرعة و خفة ؛ و ألقى إليهم بأربع من ثمراتها ؛ ثم هبط خلفها و راح يضرب قشورها الغليظة بحجر كبير ؛ ثم ينزعها و يلقيها بعيداً ؛ ثم راح يشق ثمرة ثمرة من جوز الهند بسكين ؛ و يناول كل واحد من القافلة واحدة منها ليشرب رحيقها فيرتوي به ؛ ثم يأكل الثمرة الشهية الدسمة .. ..

و اختلط الرعد و البرق و سقوط المطر و تقصف الأغصان بزمجرة عميقة صادرة من قلب الغابة ؛ زمجرة راحت تقترب من الصيادين الأربعة شيئاً فشيئاً .. ..

فانتفض حبهان يدور بعينيه في الظلمة ؛ فلم تكن لديهم تلك الليلة نار تؤنسهم و تدفئهم و تخيف الوحوش ؛ فانكمش إلى جوار ابن عمه مرجان في صمت و هدوء .. و كان النعاس يغالب عيونهما ؛ لكنهما بعد أن بلغتهما تلك الزمجرة ؛ و لمحا عينين صفراوين تبرقان في الظلام المحيط بهما ؛ تنبها متيقظين و قد هرب النوم من جفونهما ..

و علت الزمجرة مرة ثانية ؛ فقال أبو مرجان :

– إن شريحتي اللحم و الكبد اللتين نحتفظ بهما لفطورنا ستجلبان لنا المتاعب ؛ ها هو حيوان جائع – لعله ضبع أو فهد – قد شم رائحتهما ؛ فهو الآن يحوم حولنا من أجلهما ؛ و لو أننا قتلناه لجاءنا غيره .. ..

فأجابه أخوه أبو حبهان :

– علينا إذن أن نتخلص منهما و نبذلهما لهذا الحيوان الجائع ؛ لعله يدعنا نستريح ؛ و فوق ذلك فإن الأمطار الليلة غزيرة ؛ و قد بللت قطعتي اللحم و الكبد ؛ فما يشرق الصباح حتى نجد الفساد قد دب فيهما حتماً .. ..

فقام أبو مرجان إلى شريحة اللحم فحملها بين ذراعيه هي و كبد البقرة الوحشية ؛ ثم جمع قواه و قذف بهما بعيداً إلى قلب الظلمة ؛ فهدأت الزمجرة من فورها و اختفت العينان الصفراوان المخيفتان ..

فقال مرجان بحسرة :

– لقد صدنا البقرة الوحشية و تعرضنا للخطر و الموت ؛ ثم سلخناها و أتعبنا أنفسنا ؛ و بعد هذا كله لم نذق للحمها طعماً ..

فأجابه حبهان بحسرة مماثلة :

– هذا حظنا ؛ و لكن لنذكر قول أبي : إن الصياد الحق هو الصبور ؛ ذو الصدر الرحب ؛ الطويل البال .. ..

حينئذ قال لهما أبو حبهان :

– لا تجعلا اليأس يتسرب إلى نفسيكما مع أول هزيمة أيها الصيادان الناشئان ؛ فعسى الصباح الجديد أن يشرق علينا بحظ باسم سعيد ..

أما أبو مرجان فقال :

– لسنا هنا في مخبئنا تحت الشجرة في أمان ؛ هيا بنا نصعد إلى أغصان عالية مرتفعة عن الأرض حتى نهيئ لأنفسنا مبيتاً هادئاً ..

فوافقه الجميع و قاموا يتسلقون أكبر شجرة قريبة ؛ و ربض كل أب مع ابنه على غصن من أغصانها .. و هكذا نام الغلامان ؛ أما الأبوان فقد تناوبا السهر حتى أشرق الفجر ورودياً رائعاً و توقفت الأمطار و بزغت الشمس لطيفة حانية ؛ تتخلل أوراق الشجر فتتلألأ قطرات المطر المعلقة بها ؛ كأنها فصوص كثيرة من الماس نثرتها الطبيعة على خضرة الغابة .. ..

يوم الصيد الثالث

إن جمال الطبيعة ينعكس على النفوس فتنشرح و تبتهج ؛ فقد فتح الصيادون الأربعة عيونهم على شمس ذهبية ؛ و أشجاء متلألئة ؛ و جو منعش عطر .. فشقت وجه كل منهم ابتسامة عريضة تعلن نسيانه مشاق الليلة السابقة .. و هب الغلامان نشيطين ؛ و أحاطا بالشجرة التي أمضيا الليل فوها بأرعتهما ؛ ثم انزلقا في خفة إلى الأرض و هما يضحكان .. و هرولا إلى النهر حيث قفزا إلى مياهه العذبة و راحا يسبحان بعض الوقت .. و لحق بهما أبواهما ؛ و راحوا كلهم يتسابقون في السباحة و يتنافسون في الغوص إلى الأعماق .. و علت أصواتهم بالضحك ؛ و ردد الصبح المنير صدى مرحهم و تمايلت أغصان الاشجار يميناً و شمالاً كأنما تشاركهم السرور و الضحك ؛ و هبت نسمة ندية تخللت أوراق الشجر ؛ فهفهف كأنما يصفق طرباً ؛ و زقزقت العصافير و صدحت الطيور و هي ترى كل هذه البهجة حولها ..

و لم يلبث الصيادون الأربعة أن خرجوا من النهر و البشر يضئ وجوههم ..

و تعثرت قدم مرجان ببيضتين كبيرتين مدفونتين على الشاطئ ؛ فتهلل فرحان بهذا اللقطة ؛ و انحنى و أخرج البيضتين ؛ ثم رفعهما عالياً بين راحتيه و هو يصيح :

– سيكون فطورنا اليوم من البيض الشهي الطازج

فأسرع إليه ابن عمه حبهان و قال له و هو يتحسس البيضتين الناصعتين :

– أظرف ما في الأمر أننا لم نجهد أنفسنا في العثور عليهما ..

فضرب ابو حبهان كتفي الغلامين قائلاً :

– مهلاً .. مهلاً .. أيها الصيادان ! إن هاتين بيضتا تمساح !

فعبس الغلامان ؛ و بدا عليهما التقزز بطريقة أثارت ضحك أبويهما ؛ و هرول مرجان بالبيضتين و دفنهما ثانية مكانهما على شاطئ النهر و قال حبهان :

– يغنينا الله عن هاتين البيضتين ! ..

فقهقه أبوه و قال له :

– ما وقعتما فيه من التباسٍ الآن أخف مما وقعت فيه أنا ذات يوم .. فقد كنت أنا و أخي أبو مرجان في مثل عمركما نتنزه في الغابة عندما وقع نظرنا فجأةً على أربع بيضات تتوهج في عش عند ساق شجرة عالية .. فعجبنا للطائر الذي يضع بيضه هكذا عرضة للأخطار .. لكننا ما كدنا نقترب خطوة نحو ما ظننا أنه عش حتى تحركت الأغصان السود التي بني بها .. لم تكن سوى طيات حية من الحيات لفت نفسه حول بيضها ؛ و رقدت تحتضنه مستكينة عند ساق الشجرة حتى يفقس ! ..

ففغر مرجان فمه في دهشة و خوف شديدين .. أما حبهان فشهق و اتسعت حدقتاه مما سمع ..

فضجك أبو مرجان و صاح بهما :

– ما بالكما أيها الفتيان ؟ لماذا تقفان هكذا مدهوشين ؟ إن الغابة دنيا مملوءة بالغرائب !! ..

و سكت لحظة يفكر ؛ ثم استطرد :

– تأملا هذا مثلاً ! ..

و انحنى يلتقط من الأرض غصناً أصابه العطن من بين عشرات أمثاله مبعثرة في كل مكان .. فأمسك به من طرفه في حذر شديد و هو يقول لابنه و لابن أخيه :

– تعاليا ! .. تعاليا هنا و تأملا !!

فهرول الغلامان إليه ؛ و أنعما النظر في الغصن الأسود الذي أصابه العطن ؛ و في الثقوب الكثيرة التي تغطيه ؛ ثم تراجعا و هما يصيحان بفزع .. فقد كانت تلك الثقوب ممتلئة بعقارب سامة الإبرة ؛ دقيقة الحجم ؛ صفراء اللون : اتخذت من الثقوب بيوتاً..

فارتعش صوت حبهان و هو يقول :

– يا للهول ! تصوروا أنني دائماً اندفع فأجمع حطباً لإشعال نار دون رويةٍ و لا تبصرَ

فأجابه أبوه :

– بل يجب أن تتروى و تتبصر في كل أمر من الأمور مادمت اخترت الصيد مهنة ! ..

و هز أبو مرجان رأسه بحكمة الصياد المحنك و قال :

– و هكذا تريان أيها الصيادان الناشئان أن على المرء أن يحسب حساب كل خطوة يخطوها في قلب الغابة ؛ و أن يتدبر كل حركة يأتي بها ؛ فقد يكمن الخطر المميت في حشرة لا يزيد طولها عن عقدة إصبع أكثر مما يكمن في الأسود و النمور و غيرها من الوحوش الضارية

فقال له ابنه :

– صدقت يا أبي .. فمثلاً : ليس كل البيض يستساغ أكله !!

فقهقه أبوه و ضربه على كتفه مداعباً ثم قال له :

– أمازلت تذكر بيض التماسيح و بيض الثعابين ؛ يبدو أنك جائع جداً ! ..

فطأطأ مرجان رأسه و ابتسم ؛ فأحاط أبوه كتفيه بذراعيه في حنان و سار به و هو يحض أخاه أبا حبهان أن يتبعه هو و ابنه ..

فسأله أبو حبهان :

– ماذا تنويان أن تطعمانا ؟ إن أمامنا اليوم عملاً شاقاً ؛ ألا و هو اقتفاء أثر الأفيال ؛ حتى نصيد واحداً منها و نبيع نابيه للتاجر الثري الذي ينتظر في القرية ..

فأجابه أخوه أبو مرجان :

– معك الحق يا أخي .. علينا أن نتناول فطوراً حافلاً حتى تسري في أبداننا قوة ؛ فلا تنس أننا لم نتناول أمس إلا بعض الفاكهة

– ماذا تشتهي نفسك ؟

– لحم غزال ..

فتصايح الجميع موافقين .. و قفز مرجان من بينهم و الحماس يلهب قلبه و قال عالي الصوت :

– سأصيد لكم أنا هذا الغزال

فحط الصيادون رحالهم حيث كانوا واقفين .. أما مرجان فاحتمل قوسه و رمحه و دخل وسط حشائش عالية غير بعيدة عنهم .. و كان يتسلل تحت مهب الريح ؛ فلم تتنبه له جماعة من الغزلان كانت ترعى هناك .. و مع أن مرجان لم يحدث أقل صوت ؛ فإن رئيس جماعة الغزلان المرهف السمع تنبه له ؛ رفع رأسه بقرنيه المسنونين و توقف عن المضغ ؛ ينصت في يقظة و كانت عينا الغزال الواسعتان تدوران في كل جهة ..

و كانت رائحة الحشائش التي اختفى بينها مرجان قوية ؛ فشعر الفتى برغبة شديدة في أن يعطس .. فضغط أرنبة أنفه حتى يصد تلك الرغبة ؛ لكنه شهق شهقة خافتة جداً لا تكاد تسمع ؛ لكنها كانت كافية لأن يطلق رئيس قطيع الغزلان ساقيه للريح ؛ و تبعه القطيع كله دون تردد ؛ فتنبه مرجان للفرصة التي تكاد تفلت من يده ؛ و هب واقفاً و قذف رمحاً نحو قطيع الغزلان الهاربة ؛ فأصاب الرمح غزالاً فتياً سقط مكانه صريعاً .. ..

فانتظر مرجان حتى اختفى الغبار التي أثارته أقدام الغزلان ؛ ثم أسرع إلى الغزال الصريع ؛ لكنه وقف في حذر بعيداً عن قرنيه المسنونين .. إنه خشي أن يكون الغزال لم يمت بعد بل يتصنع الموت حتى إذا اقترب منه مرجان هب الغزال فجاة و انتقم منه بقرنيه .. و لكن الغزال الذي أصابه رمح مرجان في قلبه لم يتحرك من مكانه ؛ فصبر مرجان لحظة أخرى حتى تأكد له موته .. فرفعه بذراعيه القويتين و حمله على كتفه و سار به ناحية أبيه و عمه و ابن عمه ..

و لم تلبث أن فاحت في الغابة ذلك الصباح المبكر رائحة شواء شهي .. و أفطر الصيادون الأربعة على ما تمنوا و حمدوا ربهم ثم تركوا ما تبقى من الغزال للحيوانات المستضعفة .

و بعد ذلك ساروا قافلة صغيرة : أبو مرجان في المقدمة حاملاً بندقية ؛ و أبو حبهان في المؤخرة حاملاً بندقية ؛ و الغلامان شاهران الحراب بين أبويهما ..

سارت القافلة الصباح كله ؛ و أقبل الظهر حاراً قائظاً .. و ترك الصيادون الغابة بأشجارها المتكاثفة خلف ظهورهم و وقفوا يتأملون في إشفاق تلك الرقعة الجرداء من الأرض و هي تواجههم ؛ و قد توهجت رمالها حامية ملتهبة تحت شمس الظهيرة ..

فقد كان عليهم أن يعبروا تلك الصحراء ليصلوا إلى غابة أخرى تبدو عن بعد ؛ فإنهم لم يعثروا على أثر لفيل في الغابة الأولى ؛ كأنما انشقت الأرض و ابتلعت كل الأفيال ؛ فازداد الصيادون إصراراً على نيل مطلبهم .. و لكن الصحراء كانت قاسية ؛ فوقفوا وقتاً أمامها مترددين ..

و فجأةً ؛ وصلت إلى سمعهم أصوات أغصان تتكسر خلفهم ؛ كأنما هناك مئات من الفؤوس تهوي عليها .. فلما التفتوا خلفهم يستطلعون الأمر تسمروا مكانهم من الدهشة ؛ فقد رأوا قطيعاً من الأفيال الضخمة يبلغ عددها أكثر من أربعين فيلاً و كانت كلها ترعى في ألفة و أمان ؛ و تمط خراطيمها الطويلة القوية إلى أعالي الأشجار ؛ و تقتلع الأغصان المزهرة الطويلة و تأكلها ..

فتراجع الصيادون مسرعين ؛ و هرعوا يختبئون ؛ و كانت قلوبهم قبل عيونهم معلقة بالأفيال ؛ و حقاً إنهم تعبوا كثيراً حتى عثروا على ذلك القطيع و لكن الخوف من الموت تحت أقدام الفيلة جعلهم يبالغون في الاختفاء خلف جذوع الأشجار الغليظة المعمرة

و ابتعدت أنثى من الأفيال عن القطيع و راحت تبحث هنا و هناك عن حشائش و أوراق أشجار غضة لتأكلها .. و زادت في ابتعادها حتى اقتربت من النهر وكان مرجان و ابن عمه حبهان يرقبانها و يتتبعان كل حركة تأتي بها ؛ لكنها سارت نحو النهر و اختفت عن عيونهما وراء أشجار الغابة الكثيفة ؛ فتسلقا مسرعين نخلة جوز هند بعد أن ربطا نفسيهما إليها بالحبال .. فرأيا أنثى الفيل تملأ خرطومها بالماء و تنثره على بدنها حتى إذا ابتل كله لوت خرطومها حول كومة تراب كبيرة و رفعتها به ؛ ثم نثرتها على بدنها المبتل ؛ فكسته بطبقة غليظة حمته من الذباب وغيره من الهوام التي تضايقها وبعد ذلك راحت ترعى ثانية في سعادة و رضاً

و كان هناك فهد جائع يرقبها ؛ فلما لمحها تبتعد عن القطيع كثيراً تربص بها ؛ و راح يزحف على بطنه متلصصاً نحوها ؛ و في اللحظة التي هجم فيها الفهد على أنثى الفيل تنبهت هي له ؛ فاتجهت نحوه بسرعة و خفة على الرغم من ثقل حجمها الضخم ؛ و لوت خرطومها إلى أعلى في مثل لمح البرق ؛ و تلقت الفهد على نابيها .. مسكين الفهد ح لم يكن ينتظر ذلك القدر ؛

كان هدفه أن يتعلق بخرطومها ؛ و ينشب فيه أظفاره ؛ و يعمل فيه تقطيعاً و تمزيقاً ؛ و لكن أنثى الفيل كانت له بالمرصاد ؛ كانت تدافع عن حياتها في استماتة ؛ و قد عرفت أن هدفه من الهجوم هو خرطومها ؛ لذلك طوته إلى أعلى بسرعة ؛ و لم تمكنه من التعلق به ؛ بل تلقت الفهد الغادر على نابيها ؛ ثم هزت رأسها هزة شديدة ألقت الفهد بعيداً ؛ حيث ارتمى متكوراً حطكته الصدمة ؛ فتوجهت نحوه ثائرة و هي تهدر بأصوات الغضب ؛ و سحقته بأقدامها الثقيلة الغليظة ..

و ارتفع الزعيق من جانب الأفيال يحيون أنثى الفيل المنتصرة ؛ و صاحت هي ترد التحية ؛ و اندمجت مرة ثانية بين أفراد القطيع ؛ و أكبت ترعى متلذذة هانئة ..

فانزلق مرجان و ابن عمه حبهان إلى الأرض من فوق شجرة جوز الهند ؛ و هرعا إلى أبويهما في مخبئهما تحت مهب الريح ؛ و صاح مرجان مهتاجاً :

– هل شاهدتما ما شاهدنا ؟ تالله إنه منظر يسوى عمراً ! ..

فقال له أبوه :

– لقد سمعنا أصوات القتال فعلاً ؛ لكننا لم نرفع عيوننا عن قطيع الفيلة و هو يرعى هنا و هناك ؛ حتى لا يختفي عن أنظارنا ؛ بعد أن عثرنا عليه بصعوبة و مشاق كثيرة ! ..

فهمس حبهان باضطراب و هو مبهور الانفاس :

– الفهد يا أبي .. الفهد و أنثى الفيل يا أبي ..

– أنثى الفيل ! يا ويلي ! لقد استخدمت ثقل وزنها في القضاء على عدوها ..

فأجابه أبوه في همس أيضاً :

– أجل يا ولدي .. إن الفيل يرفع خصمه عالياً بخرطومه أو بنابيه القويين ثم يلقي به على الأرض و يدوسه بأقدامه كما رأيت أنت الآن

فانكمش حبهان تحت جناح أبيه في صمت و رهبة ..

و سأل مرجان عمه :

– لماذا لم تصيدا يا عمي أنت و أبي أحد الفيلة و هي ترعى أمامكم قريباً ؛ بدلاً من مراقبتها أينما تحركت ؟ ..

فابتسم عمه و قال :

– ليس الصيد يا بني اندفاعاً و تهوراً ؛ إننا نرقب فرصة مناسبة ننتهزها حتى لا تطيش الرصاصة التي نطلقها ..

– و لماذا تخاف هكذا يا عمي من أن تطيش الرصاصة ؟ .. هل ذلك عن بخل ؟ لا تؤاخذني في سؤالي يا عماه !

فضحك عمه بصوت خافت و قال له :

– و لماذا لا يكون ذلك عن حرص ؛ لا عن بخل ؟ .. إن الحرص لا يضير الصياد ؛ بل هو عين الصواب .. و لكن ذلك ليس السبب الرئيسي لخوفي من أن تطيش الرصاصة ؛ بل إن السبب الحقيقي هو خوفي أن تندفع الرصاصة التي أطلقها بلا تروٍ و تجرح فيلاً لا تصرعه .. فإن الفيل إذا جرح لا يعفو قط عن معذبه مهما يتحمل في سبيل الانتقام من مشاق ؛ فإن آلام الجرح تصيب الفيل بالجنون ؛ فينطلق عملاقاً جبار القوى يحطم و يقتل بشراسة عن يمنيه و عن شماله كل من يلقاه في طريقه ..

ففغر مرجان فمه في رعب من الصورة المخيفة التي رسمها عمه بحديثه عن الفيل ..

و كان قطيع الأفيال و هو يرعى يتقدم باستمرار فيتسلل الصيادون الأربعة خلفه في حذر شديد ..

و فجأةً تخاصم فيلان من القطيع ؛ شب بينهما عراك دون سبب ظاهر .. ربما حدث ذلك لأنهما كانا من عمر واحد ؛ يفخران بشبابهما و قوتهما .. فتحرش أحدهما بالآخر و استفزه للقتال .. لذلك فوجئ أفراد القطيع كله كما فوجئ الصيادون الأربعة بالفيلين يلتحمان في معركة مريرة ؛ ملأ صياحهما الجو ؛ و كان الصياح يهدر من أعماق صدريهما و كأنه زلزال مفزع .. كان كل من الفيلين يحاور زميله و يداوره ؛ ثم ينتهز فرصة تسنح له و يضرب جنب خصمه برأسه الضخم ضربة قاسية .. أو يخزه بنابيه في صدره أو ظهره ؛ فيتدفق الدم من الجروح العميقة ؛ فيصرخ الفيل المضروب و قد أطاش عقله الألم ..

و أخيراً تواجه الخصمان ؛ و لف كل منهما خرطومه حول خرطوم خصمه و راحا يتصارعان ؛ و يتمايلان بشدة ؛ و يصيحان صيحات عالية .. و اهتزت الأرض تحت أقدامهما الثقيلة ؛ و تكسرت الأغصان ؛ و خشخشت أوراق الشجر المتساقطة ؛ و لفت الفيلين المتقاتلين سحابة واسعة من التراب و الغبار .. فلم يعد الصيادون الأربعة يرون إلا خيالين يتمايلان و يضربان بأقدامهما .. فلما انقشعت الغمامة و تزايلت كالدخان في الهواء ؛ رأى الصيادون أحد الفيلين يخلص خرطومه من قبضة خرطوم خصمه في سرعة ؛ ثم يلفه حول ناب عدوه في خبث و دهاء .. ثم رأوه يجمع قواه كلها و يقتلع ذلك الناب من فك عدوه ؛

كما يقتلع المرء عوداَ من الأرض ؛ ثم ألقاه بين الحشائش .. فصرخ الفيل المهزوم متألماً ؛ و سال الدم من شدقه ؛ و هرول بعيداً .. أما الفيل المنتصر فرفع خرطومه عالياً فوق جبهته و راح يتمايل تهزه نشوة النصر ..

و كانت الأفيال قد وقفت مكانها ترقب القتال ؛ دون أن يتدخل ثالث بين الخصمين .. فلما اتفضت المعركة قاد الرئيس القطيع إلى ناحية أخرى من الغابة خصبة ذات خضرة زاهية و أشجار ظليلة .. ..

فأشار أبو حبهان إلى أخيه أبي مرجان الذي فهم الإشارة ؛ فتسلق هو و ابنه شجرة ضخمة عالية ؛ انتقاها ذات جذع غليظ ..

و تسلل أبو حبهان هو الآخر إلى شجرة ضخمة مقابلة ؛ فتسلقها هو و ابنه و انزويا بين الأغصان ..

و في وقت واحد انطلقت رصاصتان من الشجرتين المتقابلتين أصابتا رأس فيل هائل الحجم كان قد ابتعد عن رفاقه ؛ و راح يجول هنا و هنالك ؛ حتى جذبته ظلال الشجرتين .. فلما أصابته الرصاصتان هوى مكانه كالجبل ؛ على حين رفعت الفيلة خراطيمها تتشمم الهواء و هي تصرخ صرخات مذعورة غاضبة ؛ ثم تقهقرت بعيداً و صغارها تتعثر بين أقدامها .. ..

أما رئيس القطيع فقد وقف مكانه يتحدى و عيناه الصغيرتان المحتقنتان تدوران حوله في كل مكان .. و أخيراً رفع رأسه فلمح الصيادين الأربعة فوق الشجرتين المتقابلتين ؛ و كان الفيل الصريع ملقى بينهما .. فدار رئيس القطيع حوله حتى لا يخطو خطوة فوقه ؛ ثم اندفع مثل الدبابة نحو إحدى الشجرتين ؛ و لف خرطومه حول جذعها و حاول اقتلاعها بمن عليها ؛ و لكنه عجز عن ذلك ؛ برغم قوته الهائلة .. فقد كانت شجرة معمرة عتيقة مر عليها مائة عام أو يزيد .. فاستعصت على الفيل الثائر .. فصاح غاضباً غضباً جنونياً ؛ و انقض يضرب جذعها برأسه الضخم ضربات متتاليات قوية دوت في الغابة كدقات الطبول .. فشعر الصياد و ابنه المختبئان فوق الشجرة كأن هناك زلزالاً جباراً .. أو كأنما هما عصفوران صغيران فوق غصن تهزه يد مارد طامع فيهما ؛ فتشبثا بأغصان الشجرة في استماتة ..

فلما يئس رئيس الفيلة من محاولته استدار إلى الشجرة الأخرى التي يكمن فوقها أبو حبهان وابنه وانقض يضربها هي أيضاً برأسه ؛ كأنها جدار يطمع أن يهده من أساسه و لكن دون جدوى فلما يئس الفيل رفع خرطومه إلى أعلى وأطلق صيحة مخيفة اهتزت لها أرجاء الغابة ورددت صداها الأشجار على حين راحت عيناه الحمراوان ترمقان الصيادين الأربعة القابعين فوق الشجرتين ..

فأطلق أبو حبهان رصاصة لإرهابه فازداد غضبه و اشتدت ثورته ؛ و راح يدك الأرض بأقدامه ؛ لكنه أخيراً آثر الانصراف و هرول و هو يصيح غاضباً ؛ و لحق بقطيعه و قاده بعيداً إلى الأمان و المراعي الخضراء ..

فصبر الصيادون الأربعة حتى صفا الجو من آخر ذرة من الغبار الذي أثارته الفيلة في رحيلها و بعد ذلك هبطوا من مخبئهم ؛ و أقبلوا على الفيل الذي صرعه رصاصهم و انحنى كل من أبي حبهان و أبي مرجان على النابين يخلصانهما من الفكين بسكين حادة ؛ و راحا يعملان في دقة و مهارة فائقتين ..كان كل منهما يخلص الناب الذي من نصيبه بتوسيع اللحم حوله في حنكة ودراية ..

أما مرجان و ابن عمه حبهان فقد أسرعا إلى المكان الذي اقتتل فيه الفيلان الفتيان ؛ و انتهت المعركة العنيفة بنزع ناب أحدهما ؛ و راحا يبحثان بين الأعشاب و الحشائش حتى وجدا ذلك الناب المنزوع و كان يتوهج أبيض ناصعاً على الأرض ؛ فصاحا بفرح هما الإثنين ؛ و تعاونا على حمله إلى أبويهما ..

فرفع أبو مرجان عينيه إليهما و ابتسم ثم قال :

– مرحى .. مرحى .. سيكون هذا الناب و الله من نصيبكما ! ..

فتقافز مرجان بفرح شديد و صاح :

– أحقاً تقول يا أبي ؟ .. أحقاً ؟ ..

فأجابه عمه أبو حبهان و هو منهمك في عمله :

– إنه يقول حقاً .. و هل تظنه يمزح ؟

و أضاف أبو مرجان :

– لقد ساعدتمانا كثيراً ؛ و أثبتما أنكما صيادان ماهران ؛ لذلك وجب إكرامكما .. ستبيعان ذلك الناب الذي جئتما به الآن إلى التاجر الثري الذي ينتظرنا في القرية ؛ ثم تقتسمان الثمن فيما بينكما ..

و أضاف أبو حبهان :

– و فوق ذلك ستتناولان منا أجراً طيباً على صحبتكما إيانا في رحلتنا هذه ..

فكاد الغلامان يطيران من شدة السرور و الغبطة .. و لما فرغ أبواهما من تخليص نابي الفيل الصريع جلسوا جميعاً يستريحون ؛ و كانت الشمس قد مالت للمغيب ؛ فشعروا بالجوع ينهش أمعاءهم ؛ لكنهم اكتفوا بتناول بعض الفاكهة ؛ فقد اعتزموا أن يعودوا إلى القرية تلك الليلة ؛ و كان أهلهم على علم بموعد عودتهم فلم يكن هناك ريب في الوليمة الحافلة التي تنتظرهم للعشاء

ثم هبوا جميعاً واقفين ؛ و سار أبو مرجان كعادته في مقدمة القافلة الصغيرة ؛ و قد حمل على رأسه جلد النمر الثمين جافاً و مطوياً ؛ و تبعه الصيادون الثلاثة الآخرون و على رأس كل منهم ناب فيل : مرجان و ابن عمه حبهان ؛ ثم أبو حبهان في المؤخرة يحمي ظهر القافلة ..

و ولوا وجوههم شطر القرية الحبيبة و شطر أكواخهم الدافئة التي تنتظرهم ؛ و امتزجت أصواتهم منشدة أغنية الصائد الظافر و رددت أرجاء الغابة صدى النغمات العميقة و انتبهت الحيوانات في مرعاها ترفع رؤسها و تتوقف عن المضغ و تنصت للنغمات

نحن الصائدون هيلا هيلا هيلا

نحن الظـــافرون هيلا هيلا هيلا
بالرزق الميسور هيلا هيلا هيلا
و الخير الموفور هيلا هيلا هيلا
سعينا حميد هيلا هيلا هيلا
جهدنا مفيد هيلا هيلا هيلا
ربنا رحيم هيلا هيلا هيلا
رازق كريم هيلا هيلا هيلا
يجزي العاملين هيلا هيلا هيلا
يعطي الكادحين هيلا هيلا هيلا
نحن الصائدون هيلا هيلا هيلا
نحن الظافرون هيلا هيلا هيلا